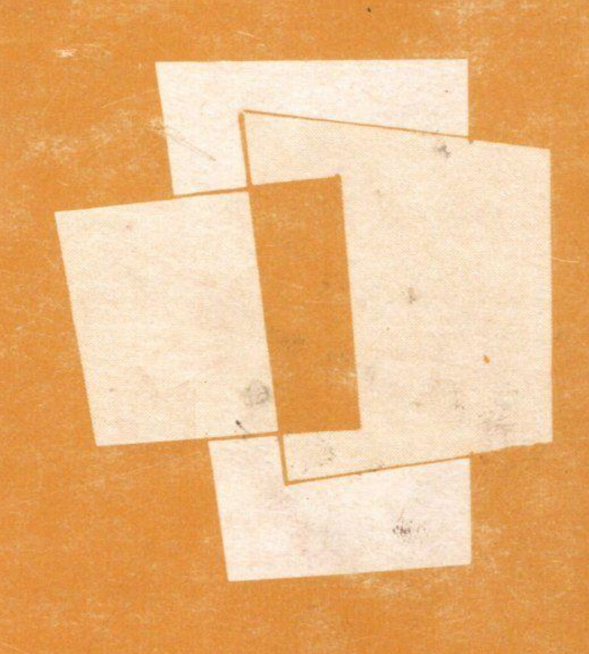


من اعلام البصرة

سيبويه

هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه

الدكتور

صاحب جعفر ابو جناح

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 04 / شعبان / 1444 هـ
فـــي 24 / 02 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائــي



الأخ الدكتور ناصر حلاوي
مع التقدير والمودة

صاحب
١٩٧٥/٢/٩

منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية
١٩٧٤ ——————— كتاب الجماهير
(١٦)

د. صاحب أبو جناح
جامعة البصرة

من أعلام البصرة

سِيبَوَيْهِ

هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه

[من الابحاث المقدمة لمهرجان المربد الثالث ١٩٧٤]

قالوا عن سيبويه :

كان سيبويه النحويّ غاية الخلق في النحو وكتابه هو الامام فيه •

ابن سلام

وأخذ النحو عن الخليل جماعة" لم يكن فيهم ولا في غيرهم من الناس مثل سيبويه ، وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل •

أبو الطيب اللغوي

كان أعلم المتقدّمين والمتأخّرين بالنحو

ابن خلكان

وقالو عن الكتاب :

لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله ، وجميع كتب الناس عليه عيال •

الجاحظ

لا أعرف كتاباً أُلّف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب • أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك ، والثاني كتاب أرسطوطاليس في علم المنطق ، والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي ، فانّ كلّ واحد من هذه لم يشذّ عنه من أصول فنّه شيء" الاّ ما لا خطر له

صاعد الاندلسي

انّ الكتب المصنّفة في العلوم مضطرة الى غيرها وكتاب سيبويه لايحتاج من فهمه الى غيره

المبرّد

مقدمة

حقاً انّه لموقف صعب ذلك الذى وجدت نفسي فيه يوم هبطت عليّ دعوة وزارة الاعلام ، ممثلة في اللجنة العليا لمهرجان المربد ، تحمل تكليفاً بكتابة بحث عن سيبويه • لقد زاد الأمر مشقة أن المهلة التي أمامي لأنجاز البحث لا تزيد كثيراً عن ثلاثين يوماً • وما ذا يمكن للمرء أن يكتب عن سيبويه في مثل هذه العجالة ، وكيف يبلغ غايته في انصاف الرجل والاحاطة بجوانب عبقريته ما دام الغرض من هذا البحث الاحتفاء بذكرى سيبويه وتجديد العهد بها •

لا أنكر أنّ صلتي بسيبويه ترجع الى سنوات خلت يوم كنت في مبدأ دراستي في الجامعة ، وأن هذه الصلة ظلّت تزداد وثوقاً منذ أن اتجهت في دراستي العليا صوب الدراسات النحوية •

وربّما تعنّ للأنسان خلال هذا الاتصال خواطر كثيرة عن الرجل في سيرته وفي كتابه ، ولكن الخواطر شيء وكتابة البحث المتكامل شيء آخر •

لقد كتبوا عن سيبويه كثيراً ، قدامى ومحدثين • القدماء أرّخوا له ونقلوا طرفاً من أخباره لا تزيد على أصابع اليدين عدّاً ، كرّروها لاحقاً عن سابق ، فهي لقلّتها لا تشفي غلّة ولا تشبع تطلّعاً •

والمحدثون كتبوا عن سيرته وكتابه ، ورائدهم في ذلك بحث

كتبه رجل من فضلاء الشيوخ في عصرنا ، هو العلاّمة الجليل الاستاذ علي النجدي ناصف •

لقد استقصى هذا الباحث المدقّق كل ما وقع له مما كتبه القدماء عن سيبويه في سيرته وأخباره أو كاد ، واستوعب كتابه قراءة وتمحيصاً على مدى سنين طويلة فكشف عن كثير ممّا خفي على معاصرينا ممّن لم تتح لهم فرصة مطالعة الكتاب كلّه أو دراسته دراسة متأنّية شاملة لاسيّما أن العهد بقراءة هذا الكتاب على الشيوخ الذين يروونه عن مشايخهم بالسند المتّصل بأبي الحسن الأخفش أول رواته ، قد انقطعت منذ مئات السنين ولم يعد مادة للدرس في معاهد الدراسة منذ أن استغنى الناس عنه بالمصنّفات الميسّرة في النحو مثل جمل الزجاجي وشروحه وايضاح الفارسيّ وشروحه ومفصّل الزمخشري وشروحه وكافية ابن الحاجب وألفية ابن مالك وشروحهما •

واليوم حين أجد نفسي ملزماً بكتابة بحث عن سيبويه الأنسان والمؤلّف فانني استحضر بوضوح موقف ذلك الرجل الذي جاء الى المبرّد يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه فابتدره المبرّد سائلا : هل ركبت البحر ؟! استعظاماً لأمر الكتاب وتصوّراً لجلالته •

وجرأني على الكتابة في الموضوع أنّ الغرض من البحث ، كما قدّرته ، هو تعريف الجمهور بسيرة هذا الرجل وكتابه الذي يمثل جوانب عبقريته • فليكن مدار الحديث اذن دراسة ما نقلوا من أخباره وأحداث حياته ثم محاولة لرسم صورة لهذه الحياة ـ قدر ما يتسع الوقت والجهد ـ ان لم تكن مكتملة ، وهو ما لا سبيل اليه ، فلا أقلّ من أن تكون خطوطاً عامة وملامح بيّنة • ومحاولة ثانية للحديث عن

الكتاب ان لم تكن استبطاناً لدخائله واستيعاباً لدقائقه وغوامضه فلا أقلّ من أن تكون تحويمة في ظلاله وتأملات هادئة فيما قيل عنه • ولا أدّعي لهذا الذى فعلت أكثر من هذا ، وفي حدود ذلك ينبغي أن يؤخذ •

واذا لم يكن هذا الذي فعلت ـ وهو لن يكون ـ كفاية للوفاء بذكرى هذا العبقري الذى خدم لغتنا بما لم يخدمها به أحد سواه فعذري أنني رهين ظروف أوضحتها ، وهي ، في تقدير أي منصف ، كافية لأن تكون عذراً للمقصّر فضلا عن المعترف بتقصيره •

والآن لابدّ لي أن أتقدّم بمشاعر التقدير الى اللجنة العليا لمهرجان المربد على الثقة التي أولتني إيّاها والفرصة التي أتاحتها لي للحديث الى جمهور المثقفين والقراء عن هذه الشخصية التي يحتفظ لها تاريخ اللغة العربية بأسمى منزلة واعظم مقام •

صاحب جعفر أبو جناح

البصرة في أول مارت ١٩٧٤



(١)

الرجـل

موطنه ـ اسمه ولقبـه : دلالة اللقب ومناسـبته ـ شركاؤه في اللقب ـ كنيتـه ـ أسرته ـ مولده ـ نشـأته وهجـرته ـ دراسـته شـيوخه ـ شـخصيته ومواهبه ـ مناظـرته مع الكسائي : رواياتهـا وملابساتها ـ بين اليأس والرجاء ـ وفاته ـ مكانها وتأريخها ـ سيبويه بين القـدماء والمحـدثين : خصـوماً وأنصـاراً ـ تلاميـذه .

كان شيخ المحدّثين حماد بن سلمة متصدراً حلقته يملي على جماعة من طلبته قائلا : صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا .

وكان الذي يستملّ غلام حدث السن ما لبث أن عقّب بلهجة الواثق على كلام شيخه قائلا : صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفاء .

فقال له الشيخ : يا فارسيّ ، لا تقل الصفاء ، لان الصفا مقصور .

فلما فرغ الشيخ من مجلسه كسر الغلام قلمه وقال : لا أكتب شيئاً حتى أحكم العربية .

كان هذا الغلام الفارسي الذي عرف فيما بعد بين الناس باسم سيبويه قد ورد البصرة نازحاً اليها من موطنه في فارس يطلب علوم الحديث والفقه .

قدم اليها وهو يطوي جانحيه على آمال عريضة وأحلام واسعة في المجد العلمي الذي يمكن أن تهبه له مواظبته على ارتياد حلقات العلماء والمحدّثين في مساجد البصرة .

كانت هذه الحادثة التي وقعت لسيبويه مع شيخه حماد ، وحادثة أخرى مثلها وقعت له مع حماد نفسه ، نقطتي انعطاف بالغ في حياة سيبويه ومستقبله العلمي .

فهما اللتان وجهتاه شطر الدراسات اللغوية يطلبها ليحكم النطق باللسان الجديد الذي تعلمه ، فكان أن تحول الى حلقات النحويين مثل عيسى بن عمر والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وغيرهم ، يأخذ عنهم النحو وعلوم اللغة حتى آل الامر به في نهاية المطاف لأن يكون شيخ النحاة البصريين وامامهم وواضع أول كتاب جامع لقواعد اللغة ، لم يسبقه الى مثله سابق ولم يلحقه به بعده لاحق .

موطنـه :

في قرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء من أعمال فارس[1] ، ولأسرة فارسية من سواد الناس ، ولد سيبويه[2] .

والبيضاء هذه كانت معسكراً للمسلمين يقصدونها في فتح أصْطَخْر . قال ياقوت : وهي مدينة تقارب أصطخر في الكبر[3]، وبناؤهم من طين ، وهي تامّة العمارة خصبة جداً ، ينتفع أهل شيراز بميرتها ، وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ . وانما سمّيت البيضاء لأنّ لها قلعة تبيّن من بُعد ويُرى بياضها[4] .

وأسمها هذا معرّب عن اسمها الفارسي دَرْإسفيد أودهْ سِفيد.

اسمه ولقبه :

سيبويه لقب غلب على عمرو بن عثمان بن قَنْبَر[5] ، حتى

---

(١) يطلق هذا الاسم على الاقليم الفسيح الممتد جنوبي بلاد ايران بين ارّجان غربا وسيراف والبحر جنوبا وكرمان شرقا والصحراء الممتدة بينها وبين خراسان واصبهان . ياقوت ٨٣٥/٣ وابن حوقل ٢٣٤ .

(٢) طبقات الزبيدي ٦٦ ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٩٥/١٢، نزهة الالباء لابن الانباري ٣٨ ، معجم الادباء لياقوت الحموي ٨١/٦ .

(٣) يبدو أنها صارت كذلك فيما بعد على عهد ياقوت ، فالزبيدي يدعوها قرية .

(٤) معجم البلدان ٧٩١/١ (ط اوربا) .

(٥) اختلفوا في ضبط هذا الاسم فبعضهم يراه بزنة جَعْفَر وآخرون بوزن مُرهَف . وتحقيق ذلك في كتاب (سيبويه امام النحاة) للاستاذ على النجدى ناصف : ٧٠ ، وكتاب سيبويه وشروحه للدكتورة خديجة الحديثى ٩ .

كاد الناس ينسون اسمه ، ولم يعد يعرفه به غير المختصّين بدراسة اللغة وأصحاب الطبقات والتراجم .

وهذا اللقب فارسي أُطلق عليه منذ طفولته ، وروى أن أمّه كانت ترقّصه به[٦] . وذهبوا في تفسير معناه ومناسبته مذاهب شتّى .

فقالوا : معناه رائحة التفّاح ، وهو مركب من (سيب) أي التفّاح و (ويه) أى الرائحة[٧] . قال صاحب تاج العروس : وأصل التركيب: تفاح رائحة ، لأنّ الفرس وغيرهم عادتهم تقديم المضاف على المضاف اليه غالبا[٨] .

ولكنّ العارفين باللغة الفارسية ينكرون هذا الزعم ، لأنّ ويه عندهم لاتعني الرائحة ، وانمّا هي أداة نسبة قديمة .

ففي الفارسية القديمة نجد أعلاماً مثل : ما هويه وراهويه ، نسبة الى ماه ، وهو القمر وراه وهو الطريق ، واستحدث العرب على مثاله عمرويه ونفطويه ومسكويه[٩] غير أن العرب ينطقونه ـ كما هو معروف ـ بفتح ما قبل الواو واسكان الياء وكسر الهاء (سِيبَوَيْهِ)

---

(٦) الخطيب البغدادي ١٢/١٩٥ ، ابن الانباري ٣٨ ، ياقوت ٦/٨٠، ابن كثير ١٠/١٧٦ ، السيوطي ٤٨٠ .

(٧) اخبار النحويين البصريين للسيرافي ٣٧ ، الفهرست لابن النديم ٥١ ، الخطيب البغدادي ١٢/١٩٥ ابن الانباري ٣٨ ، القفطي ٢/٣٤٦ ، ياقوت ٦/٨٠ ، ابن خلكان ٣/٤٦٥ . المقّري ٥/٢٢٤ .

(٨) تاج العروس : مادة (سيب) وانظر روضات الجنات للخونساري ٤٨٠ والتصريح ٢/١٨٥ .

(٩) ينظر مانقله الاستاذ عبدالسلام هارون في مقدمته لكتاب سيبويه ، ود . خديجة الحديثي ١٤ .

والعجم ينطقونه بضمّ ما قبل الواو وفتح الياء واسكان الهاء كما يقول ابن خلّكان (١٠) سيبُويَهْ .

فسيبويه ، على هذا ، معناها : تفاحي .

وقالوا : هو مركّب من سيب أى التفاح و (بويَ) أى الرائحة. وهذا يقتضي أن تكون الباء مضعّفة مضمومة (سيبُّويَ)(١١) ، وهي ليست كذلك كما نعرف مما جعل كرنكو يرفضه ويقول : ولكننا لانستطيع أن نأخذ بهذا التفسير ، ذلك لأنّ اللقب سيبويه لم يرد قطّ أنّه ينطق بالباء المضعفّة ، فضلا عن أننا نستطيع ، بالقياس على كثير من الأسماء الفارسية الأقدم منه عهدا والتي تتضمّن الكاسعة وي ، أن نقرّر مع الترجيح الكبير أنّ هذه الكلمة كانت تنطق : سِيبُويَ (Seboe) وأنّها كانت عبارة تحمل معنى التدليل والأعزاز وتدلّ على التفّاحة الصغيرة(١٢) .

ومثل ذلك ما نقل عن المستشرق الفرنسي هارت الذى يقول : انّ هذه الصيغة قد يكون مدلولها التصغير في اللغة الفارسية(١٣) .

وفي مقابل هذ التفسيرات التي تتفق على أن اشتقاق اللقب من

---

(١٠) وفيات الأعيان ٣/٤٦٥ .
(١١) قال الأستاذ النجدي : فلعلّهم عدلوا عن التشديد للتخفيف ، فالمشدّد أثقل من غيره ... وعدلوا عن الضمّ الى الفتح ليذهبوا به مذهب المختوم بويه في النطق والأعراب . وقد كان هذا النوع من الاسماء معروفاً قديماً . سيبويه امام النحاة : ٧١ .
(١٢) دائرة المعارف الاسلامية ١٢/٤٠٧.
(١٣) د . أحمد بدوي . سيبويه : ٦

سيب ، الذى هو التفّاح ، نجد ابن خالويه العالم اللغوى المتوفى سنة ٣٧١هـ ـ وهو فارسي الأصل كما هو معروف ـ يقدّم تفسيرا آخر اذ يقول : كان سيبويه لايزال من يلقاه يشمّ منه رائحة الطيب ، فسمّي سيبويه ومعنى سي ثلاثون وبوى الرائحة ، فكأنه رأى ثلاثين رائحة طيب • قال ياقوت : ولم أر أحداً قال ذلك غير ابن خالويه(١٤) •

ولكن عالماً آخر هو أبو عبدالله بن طاهر العسكرى معاصر الزبيدي المتوفّى سنة ٣٧٩ هـ ذهب الى مثل هذا أيضا • فقد روى الزبيدى قال : وحدّثني أبو عبدالله بن طاهر العسكري قال : سيبويه اسم فارسي ، فالسيّ ثلاثون وبُوَيه رائحة فكأنّه في المعنى ثلاثون رائحة ، وكان فيما يقال حسن الوجه •(١٤)

وهذا التفسير ان صحّ في كلمة سيبويه فأنّه لن يصحّ في تفسير ما هو على شاكلته من الأعلام مثل ماهويه وراهويه وشيرويه وبرزويه في الفارسيّة وعمرويه ونفطويه ومسكويه في العربية • حيث أنّ اللاحقة مع هذه الأسماء ويه لا بويه •

ولكنّا ـ بعد الاستئناس بآراء العارفين باللغة الفارسية ممّن نقل عنهم الاستاذ عبدالسلام هارون وغيره(١٦) ومن نعرف نحن منهم ـ

---

(١٤) معجم الادباء ٦/٨١ ونفح الطيب ٥/٢٢٤

(١٥) الزبيدي ٧٣ والقفطي ٢/٣٦٠

(١٦) نقل الدكتور أحمد ناجي القيسي عن أستاذه العالم الايراني سعيد نفيسي ان ويه اداة نسبة قديمة . مجلة كلية الاداب في بغداد عدد ٩ ص ٩٤ .

يمكننا أن نقرّر على سبيل الترجيح لا الجزم أنّ صورة كلمة سيبويه في الفارسية (سِيبُوِيَ) (Seboe) بسين مكسورة وياء ممدودة وباء مضمومة مع واو ممدودة تليها ياء مفتوحة مماله نحو الكسر كما يظهر في هجائها اللاتيني •

وهي مركّبة من سيب (التفاح) مع (وىَ) أداة النسبة أو التصغير المقصود به التمليح • وانّما ضمّت الباء لمناسبة الواو التي بعدها • يؤيد ذلك هجاؤها الفارسي الذى أثبته ابن خلكان ، فقد نصّ على ضمّ الباء وفتح الياء • ولو أنّه لم يشر الى أنّها فتحة ممالة •

ويبدو لي أنّ هذه الأمالة ـ وقد سلكوا فيها سبيل الأشباع ـ هي التي تسبّبت في اضافة الهاء الى آخر الكلمة عند النطق بها طلبا للاستراحة • وهو أمر جرى على ألسنة العجم كما يذكر ابن خلكان الذى نصّ على أنّهم ينطقون الهاء ساكنة • ولابدّ من أنّهم جروا على ذلك في سائر نظائر هذه الكلمة قبل سيبويه وبعده كما هو معروف في هجاء هذه الأعلام ورسمها •

وحين انتقلت هذه التسميات الى البيئة العربية واستخدم العرب هذه اللواحق في أسمائهم مثل عمرويه ونفطويه ، تصرّفوا ببنية الكلمة أو عرّبوها بما يتلاءم وطريقتهم في النطق ، فاستبدلوا الضمّة التي قبل الواو بفتحة طلبا للخفّة وتجنّبا لثقل اجتماع الضمّة مع الواو • والفتحة كما نعلم أخف الحركات في العربية ، ثمّ فتحوا الواو امعانا في التخفيف وأسكنوا الياء التي بعدها ، فكانت لفظة وَيْه بوزن طير •

وعند العرب من هذا البناء ألفاظ كثيرة • منها مصادر مثل ويل وويح وأسماء أفعال مثل ويهٍ ، للأغراء •

أما حركة الهاء وهي آخر الكلمة ، فالنحاة مختلفون فيها على مذهبين •

الخليل وسيبويه ومن تابعهما يرون أنّها مبنيّة على الكسر فأذا نكّرت نوّنت •

والكسائي والجرمي يريان أنّها معربة غير منصرفة ، فهي ترفع بالضمّة وتنصب وتجر بالفتحة[١٧] وكلا المذهبين يمكن أن يرد في اعراب هذه الكلمة • فالذى يبنيها على الكسر ينظر الى آخرها فيجد له نظائر في بعض أسماء الأصوات أو الحروف المبنيّة على الكسر ، والذى يمنعها من الصرف يرى أنّها علم مركب فيه عجمة أو آثار عجمة اذا كان صدره عربيّاً مثل عمرويه ونحوه •

ويظهر لي أنّ هذين الرأيين ثمرة اجتهاد النحويين لأعراب مثل هذه المركّبات الدخيلة على العربيّة • فقد بنوا مذاهبهم فيها على أساس ما يرونه مناسبا لها من نظائر في العربية فقاسوها عليه •

أمّا العامّة فالظاهر أنّهم كانوا ينطقونها ساكنة الاخر ولو أنّ ما قبل آخرها ساكن أيضا • ويرجّح ذلك أنّ هذه الأعلام شاعت في الحواضر التي مصّرت بعد الفتح الأسلامي ، وبعد أن أصبح الناس يتخفّفون من ظاهرة الأعراب في أحاديثهم اليوميّة فضلا عن انّها كانت تنطق ساكنة الآخر في لغتها الأصلية •

والآن لا بدّ لنا من أن نتساءل عن المناسبة بين هذا اللقب

---

(١٧) الكتاب ٥٢/٢ ، التصريح ١١٨/٢ ، القفطي ٣٥٢/٢

وشخصيّة صاحبه الذي لقّب به • فالذي يتبادر الى الذهن أنّه لم يطلق عليه عفوا من غير مناسبة تقتضيه •

الخطيب البغدادي يروى عن ابراهيم بن اسحق الحربي (ت٢٨٥هـ)[١٨] قوله : لقّب بذلك لأنّ وجنتيه كانتا كأنّهما تفاحة (كذا)[١٩] •

وعامة من جاءوا بعد البغدادي ينقلون روايته هذه بسندها[٢٠]

وابن كثير يقول في ترجمته : وانّما سمّي سيبويه لأنّ أمّه كانت ترقّصه وتقول له ذلك[٢١] • ويضيف السيوطي الى هذا قوله : وقيل كان يعتاد شمّ التفاح • وقيل لقّب بذلك للطافته ، لأنّ التفاح من أطيب الفواكه[٢٢] • ونقل ذلك عنه الخونسارى[٢٣] أمّا ابن خالويه فقد علّله بقوله : كان سيبويه لايزال من يلقاه يشمّ منه رائحة الطيب فسمّي سيبويه[٢٤]

ولبيان أحق هذه الآراء بالقبول نقول :

أولا : ان ما ذكره ابن كثير ونقله عنه السيوطي لايعدو أن يكون

---

(١٨) كان ابراهيم الحربي يأخذ عن ابن عائشة (ت ٢٢٨ هـ) معاصر سيبويه وممن شهد مجالسه . وانظر في ترجمتيهما تاريخ بغداد ٢٧/٦ ، ٣١٤/١٠ ومعجم الادباء ٣٧/١ والاعلام ٢٤/١ ، ٣٥٢/٤ .

(١٩) الخطيب البغدادي ١٩٥/١٢ .

(٢٠) القفطي ٣٥٤/٢ ، ابن خلكان ٤٦٥/٣ ، ابن العماد ٢٥٢/١

(٢١) البداية والنهاية ١٧٦/١٠

(٢٢) بغية الوعاة ٣٦٦ وانظر التصريح ١٨٥/٢

(٢٣) روضات الجنّات ٤٨٠

(٢٤) معجم الادباء ٨٠/٦

نتيجة لا تعليلا فنحن نتساءل عن السرّ في اختيار هذا اللقب من قبل والدته أو غيرها والمناسبة بين شخصية الطفل ولقبه .

ثانيا : ما ذكره السيوطي من انّه كان يعتاد شمّ التفّاح مبني على أن اللقب يعني رائحة التفّاح ، الامر الذى لاتؤيده وجهة النظر اللغوية كما رأينا ، فضلا عن أنّ المناسب في مثل هذه الحال أن يلقب «شامّ التفّاح» لا رائحة التفّاح ، كما قرّر الأستاذ النجدي[٢٥] . وهو أيضا يقتضي أن اللقب أطلق عليه بعد أن جاوز مرحلة الطفولة وهو يتعارض مع ما روي من أنّ أمّه كانت ترقّصه به .

وما ذكره من أنّه لقب بذلك للطافته ، لأنّ التفاح من أطيب الفواكه يوهنه أنّ الأقرب في الحالة هذه أن لا يلقب بالتفّاح ولا برائحته ، فليس كلاهما ـ كما يقرّر الأستاذ النجدي ـ بالمثل السائر ولا المثل الحاضر في اللطافة ، ولكن هناك أمثلة لها معروفة متداولة كالأزهار والهواء .

ثالثاً : ما ذكره ابن خالويه مبنيّ على أن معنى اللقب ثلاثون رائحة ، وهذا ـ مع سلامته من وجهة النظر اللغوية ـ لا يطرّد في تفسير ما جاء على مثاله من الأعلام مثل عمرويه ونفطويه وخالويه ونحوها كما قرّر الاستاذ عبدالسلام هارون .

يضاف الى ذلك أنّ هذا التفسير يقتضي أن يكون اطلاق اللقب قد وقع بعد أن شبّ سيبويه أو أيفع وعرفه الناس ، وهو لم يبلغ ذلك الاّ بعد أن غادر موطنه واستقرّ في البصرة يتلقى عن شيوخها .

---

(٢٥) سيبويه امام النحاة : ٧٣

ألا يحق لنا أن نتساءل مع الاستاذ النجدي فنقول : هل يعقل أن يلقب في البصرة لقباً فارسياً مع أنها ـ منذ أن مصّرت ـ حاضرة عربيّة ، واللغة العربية يومذاك لغة العلم والدولة ؟ أما كان الأشبه أن يلقب بلسانها ولسان الدولة التي استحدثتها ؟

وقد يعترض معترض فيقول : ولكن البيئة العربية كانت تعرف مثل عمرويه ونحوه • ونجيبه بأنّ عمراً اسم عربي أضيفت اليه لاحقة فارسية (ويه) واضافة اللواحق الفارسية في بيئة البصرة ليست غريبة • فقد شاعت في بيئة البصرة نسبة فارسية تتمثّل بألحاق (آن) في آخر الاسم ، فكانوا يقولون في النسبة الى طلحة وحارث طلحتان وحارثان • وفي البصرة قطائع وأنهار منسوبة الى أصحابها بهذه الطريقة الفارسية كزيادان وأميّتان وسليمانان نسبة الى زياد وأميّة وسليمان (٢٦) •

ومن هنا فنحن نميل الى ما رواه الخطيب البغدادي من أنّه انّما لقّب بذلك لأنّ وجنتيه كانتا كأنّهما تفاحتان •

يؤيد ذلك التفسير اللغوي المنقول عن أهل العلم باللغة الفارسيّة بأنّ معناه تفّاحي • ووجه الشبه قائم بين التفاح ووجنتي الطفل •

يقوي ذلك أن هذا التفسير نقل عن ابراهيم الحربي معاصر ابن عائشة الذى كان يحضر مجالس سيبويه •

وبهذا يندفع الأشكال الذي اعترض الأستاذ النجدي من أن

---

(٢٦) الخليل بن أحمد الفراهيدي للدكتور المخزومي ١٢ وفتوح البلدان للبلاذري : ص : ٣٥٦

هذا اللقب لا يبيّن حكمة اختيار والدة سيبويه رائحة التفّاح خاصّة ، مع أن التفّاح فاكهة لا طيب [27] .

فمعنى (سيبويه) إذن (تفاحيّ) وليس رائحة التفّاح . وحكمة اختياره المشابهة بين لون التفّاح ووجنتي الطفل . وقد ظلّ لقبه عالقاً به حتى بعد أن شبّ واشتهر بين مواطنيه ، لأنّ صورته لا تزال تحمل الشاهد على صدق اللقب ومناسبته . فقد كان شاباً جميلا نظيفاً .

شركاؤه في اللقب :

كان للشهرة التي حظي بها سيبويه عند دارسي اللغة والنحو والمجد الذي حقّقه بوضعه كتابه الشهير أثر في شيوع لقبه واطلاقه على طائفة من النحويين والعلماء فضلا عن أن هذا اللقب ظل رمزاً لكل من يتفاصح في كلامه ويعني عناية خاصة بأمور النحو حتى يومنا هذا .

وممن علق بهم هذا اللقب من العلماء :

محمد بن موسى بن عبدالعزيز المصري المتوفى سنة ٣٨٤ هـ

ومحمّد بن عبدالعزيز التميمي الأصبهاني من رجال القرن الرابع الهجري

وعلي بن عبدالله بن ابراهيم الكومي المغربي المتوفى سنة ٦٦٧ هـ

وابراهيم الشبستري النقشبندي من علماء القرن العاشر [28] .

---

(٢٧) سيبويه امام النحاة ٧٢

(٢٨) ينظر في تراجم هؤلاء البغية : ١٠٨ ، ٦٧ ، ٣٣٩ والمزهر ٢/٤٥٤ والكشف ١/٢٦٧ ، ٢/١٩٨٧ والتصريح ٢/١٨٥ والحديثي ١٧

كنيته :

يذكر مترجمو سيبويه أنَّ له ثلاث كنى ، أبا بشر ، وهي أكثرها شيوعاً وأثبتها كما يقول اللغوي . وكان معاصروه يعرفونه بها . جاء ذلك فيما حكاه ابن سلام معاصر سيبويه[(٢٩)] . وأبا الحسن أو الحسين وأبا عثمان [(٣٠)] .

ولم يذكر التاريخ أنَّ لسيبويه ولداً يحمل واحداً من هذه الأسماء ، بل لم يذكر مترجموه أنَّه اتخذ له زوجة . وقد وردت عند بعضهم رواية مفردة عن جارية له عبثت بكتبه يوماً فغضب عليها وطلقها [(٣١)] . وهي بحكايات القصّاصين أشبه منها بوقائع الحياة .

اسرته :

لم تكن أسرة سيبويه ذات جاه أو سلطان فيعنى بها المؤرخون ، وكل الذى نعرفه عن هذه الأسرة اسم أبيه عثمان واسم جدّه قنبر [(٣٢)] . وهي أسماء عربية اسلامية توحي بأن هذه الأسرة دخلت الاسلام منذ عهد مبكّر . أمّا أُمّه فلم يتعرض لذكرها مترجموه إلاّ

---

(٢٩) الزبيدي ٦٧

(٣٠) اللغوي ٦٥ ، ابن النديم ٥١ ، الخطيب البغدادي ١٩٥/١٢ القفطي ٣٤٦/٢ ، ياقوت ٨٠/٦ .

(٣١) نقل ذلك الاستاذ علي النجدي عن طبقات ابن قاضي شهبة . وهي مخطوطة .

(٣٢) المعارف لابن قتيبة ٥٤٤ ، مراتب النحويين لابي الطيب اللغوي ٦٥ ، السيرافي ٣٨ ، الزبيدي ٦٦ ، ابن النديم ٥١ ، الخطيب البغدادي ١٩٥/١٢ القفطي ٣٤٦/٢ ، ياقوت ٨٠/٦ ، الانباري ٣٨ ابن خلكان ٤٦٣/٣ ، مرآة الجنان لليافعي ٣٤٨/١ ، ابن كثير ١٧٦/١٠ ، الخونساري ٤٨٠ .

حين يروون أنّها كانت ترقصه وهو طفل بلقبه الذى شاع وغلب على اسمه حتى كاد يمحوه •

وهم يذكرون أيضاً أنّ له أخاً كان يصحبه حين حضرته الوفاة •

واذا كان لذلك دلالة فهي أن أسرة الرجل لم تكن ذات شأن بين الفرس أو العرب ولم يعرف عن واحد من أبنائها نبوغ في علم أو نفوذ من جاه أو سلطان • فهي أسرة من غمار الناس ، وما كان يمكن أن يذكرها التاريخ لولا فتاها العبقري مخلد ذكراه وذكراها بما حقّق من تفوّق علمي وما خلّف من أثر لن يمحى •

ولم يشأ سيبويه أو أسرته أن يتركوا أنفسهم دون ولاء يحتمون به في ظلّ الدولة الجديدة ، دولة العرب أصحاب السيادة والسلطان • فأعلنوا ولاءهم لآل الربيع بن زياد الحارثي أو لبني الحارث بن كعب ، احدى قبائل اليمن المشهورة ، ومن ذوات النفوذ والقدر في دولة بني العبّاس (٣٣) •

مولده :

لأن سيبويه ولد في أسرة من عامة الناس ، ولأنّ مواطنيه لم يعرفوا أنّه سيكون له شأن عظيم في تاريخ العربية ، لم نجد أحداً من القدماء ـ ممن قرأنا لهم ـ حدّد تاريخاً لمولده أو حاول ذلك • بل هم اختلفوا اختلافاً كبيراً في تاريخ وفاته ، حتى كان الفرق بين أدنى

---

(٣٣) الاشتقاق لابن دريد ٢٣٧ ، جمهرة الانساب ٤١٦ • وتراجم سيبويه عامة •

تاريخ لها وأقصاه حوالي ثلاثين عاماً ، وهي المدّة التي قدّر بعضهم أنّه عاشها •

ولكنّنا نجد عند ياقوت إشارة يمكن الوقوف عندها للاهتداء الى تاريخ مقارب ، ان لم يكن دقيقاً ، لمولد سيبويه •

قال ياقوت : وقال المرزباني : مات (أي سيبويه) بشيراز سنة ١٨٠ ، وذكر الخطيب أن عمره كان ٣٢ سنة ، ويقال : إنه نيّف على الأربعين سنة ، وهو الصحيح ، لأنّه قد روى عن عيسى بن عمر ، وعيسى بن عمر مات سنة ١٤٩ • فمن وفاة عيسى الى وفاة سيبويه ٣١ سنة ، وما يكون قد أخذ عنه إلاّ وهو يعقل ، ولا يعقل حتى يكون بالغاً • اه (٣٤)

فاذا قدّرنا لسن البلوغ عند سيبويه نحو أربعة عشر عاماً فانّ مولده سيكون حوالي عام ١٣٥ هـ ، وهو ما يرجّحه بعض المعاصرين(٣٥) •

فيكون مولد سيبويه آنذاك مواكباً لمولد دولة العباسيّين الفتيّة التي قامت على أنقاض دولة بني أميّة عام ١٣٢ هـ •

نشأته وهجرته :

يحدثنا الرواة أنّ سيبويه ترعرع في موطنه الذى ولد فيه (البيضاء) ، ولكنه ما لبث أن غادرها قاصداً البصرة ، وهو بعدُ غلام ، طلباً لمجالس العلم وحلقات المحدثين وأهل الأثر (٣٦) ولكنّهم لم

---

(٣٤) معجم الادباء ٦/٨١ •
(٣٥) د • أحمد بدوي ٧ وعلي النجدي ٦٩
(٣٦) طبقات الزبيدي ٦٦ وتاريخ بغداد ١٢/١٩٥

يحدّدوا تاريخ نزوحه الى البصرة ولا السنّ التي بلغها يوم أن غادر موطنه • كما إنّهم لم يذكروا ما اذا كان ذلك بصحبة أسرته أو بدونها • فالزبيدي ينقل عن أبي علي القالي (ت ٣٥٦ هـ) قوله : ولد سيبويه بقرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء من عمل فارس ثم قدم البصرة ليكتب الحديث [٣٧] • وهذا يعني أنّ هجرته كانت في سنّ تؤهله لأن يشهد حلقات المحدّثين والرواة • والخطيب البغدادي يقول : كان من أهل فارس من البيضاء ومنشؤه بالبصرة [٣٨] • ومثل ذلك ما قاله ياقوت •

وهذا يعني أنه نشأ وترعرع في البصرة وأنّه نزح اليها في سنّ مبكّرة • ولا يمكن أن يكون ذلك قد تمّ بدون مصاحبة أسرته أو بعض أفرادها •

ومهما يكن من أمر فالذى يعنينا نحن أن نعرف أنّ هجرة سيبويه الى البصرة ـ سواء كان بمفرده أم بصحبة أسرته ، في سنّ الطفولة أو الصبا ـ كانت ليعدّ نفسه اعداداً علمياً يؤهله لبلوغ آماله في حياة ميسورة معزّزة ، وهو مطمح كان يسعى اليه كثير من أبناء الموالي بعد أن وسّعت لهم الدولة الجديدة فرص النجاح والتفوّق والصدارة في شؤونها ومرافقها ، ولا سيّما أنّهم جندها وأنصارها ، وعلى أكتافهم نهضت واستقامت سيادتها •

دراسته :

قصد سيبويه البصرة ـ كما نقلنا ـ طلباً لعلوم الحديث والفقه •

---

(٣٧) الزبيدي ٦٦
(٣٨) تاريخ بغداد ١٩٥/١٢ ، نزهة الالباء ٣٨

وأول ما يلقانا من أخباره في هذا الصدد أنّه كان يحضر حلقة حمّاد بن سلمة (ت ١٦٧ هـ) المحدّث المشهور . قالوا : كان سيبويه مستملياً لحماد بن سلمة ، وكان حمّاد فصيحاً ، فاستملاه يوماً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس من أصحابي أحدٌ إلاّ ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء . فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء . فصاح به حمّاد : لحنت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، إنّما هو استثناء . فقال سيبويه : لا جرم والله لأطلبنّ علماً لا تلحنني معه . فمضى ولزم مجلس الأخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين [٣٩] .

ورووا أيضا أنّه جاء الى حمّاد هذا فقال له : أحدّثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رعُف في الصلاة ؟ فقال حمّاد : أخطأت ، انمّا هو رعَف . فانصرف الى الخليل فشكا اليه ما لقيه من حمّاد ، فقال : صدق حمّاد ، ومثلُ حمّاد يقول هذا ورعُف لغة ضعيفة ، والصحيح رعَف[٤٠].

وروى الزجاجي قال : حدّثنا أبو جعفر قال : حدّثنا ابن عائشة عبيد الله قال : حدثنا حمّاد بن سلمة قال : جاء سيبويه مع قوم يكتبون شيئاً من الحديث،فكان فيما أمليت ذكر الصفا عن رسول الله صلى عليه وسلم فقلت : صعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم الصفا . وهو الذى كان يستملّ ، فقال : صعد النبي صلى الله عليه وسلّم الصفاء . فقلت : يا فارسي لاتقل الصفاء ؛ لأنّ الصفا مقصور . فلمّا فرغ من مجلسه

---

(٣٩) مجالس العلماء ١٥٤ ، السيرافي ٣٤ ، الزبيدي ٦٦ ، الخطيب البغدادي ١٩٥/١٢

(٤٠) الزبيدي ٦٦ ، القفطي ٣٥٣/٢ .

كسر القلم وقال : لا أكتب شيئاً حتى أحكم العربية[٤١] •

هذه الوقائع الثلاث التي وقعت لسيبويه مع شيخه في الحديث حماد بن سلمة هي التي أثارته ، فيما يروي مترجموه ، فدفعته الى الانصراف الى النحو والاشتغال به • فلزم شيوخه والقائمين عليه ملازمة مكنته من أن يبرع فيه ويتصدر لأقرانه والتأليف فيه وهو لما يزل في فتوة الشباب[٤٢] •

شيوخه :

أخذ سيبويه النحو والعربية والقراءات عن طائفة من شيوخ عصره ممن كانوا يتصدرون مجالس الأقراء والتدريس • وقد روى عنهم في كتابه جملة من آرائهم في مسائل النحو واللغة والقراءات جاوزت ثماني مئة موضع[٤٣] •

فمن شيوخه[٤٤] :

عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩هـ • وهو مولى خالد بن الوليد • نزل في ثقيف فنسب اليهم • قال عنه السيرافي : هو في طبقة أبي عمر بن العلاء ، ومن مقدمي نحويي أهل البصرة • وكان أخذه

---

(٤١) مجالس العلماء ١٥٤

(٤٢) يجب الا نغفل الدلالة النفسية التي انطوت عليها ردود الفعل لدى سيبويه في هذه الوقائع الثلاث . فهو يبدو فيها شديد الاعتزاز بنفسه مصمماً على تدارك جوانب النقص في ثقافته ، لم تمنعه حداثة سنة من ان يصحح لشيخه عبارته حين توهم خطأه فيها .

(٤٣) سيكون مرجعنا في المسائل الاحصائية كتاب الاستاذ علي النجدي ناصف .

(٤٤) راعينا في ترتيب شيوخ سيبويه سنوات وفياتهم فبدانا بأقدمهم وفاة .

من عبدالله بن أبي اسحق وغيره[٤٥] • وقال عنه ابو الطيب اللغوي : وكان أفصح الناس وكان صاحب تقعير في كلامه واستعمال الغريب فيه وفي قراءته[٤٦] • ويرون أنّه وضع في النحو كتابين سمّى أحدهما الجامع والآخر الأكمال أو المكمل • قال ولكنّ السيرافي : يروي عن علي بن محمد بن سليمان ـ أحد رواة الطبري المؤرّخ ـ عن أبيه قوله : وقلت له (لعيسى) يوماً : أخبرني عن هذا الذى وضعت ، يدخل فيه كلام العرب كلّه ؟ قال : لا • قلت : فمن تكلّم بخلافك واحتذى ما كانت العرب تكلّم به أتراه مخطئا ؟ قال : لا • قلت : فما ينفع كتابك ؟[٤٧]

ويروي أبو الطيب اللغوي عن المبرّد أنّه قال : قرأت أوراقاً من أحد كتابي عيسى بن عمر فكان كالاشارة الى الأصول • ويصفهما أبو الطيب بأنهما مختصر ومبسوط[٤٨] •

ويروون أن الخليل قال فيهما :

بطل النحو الـــذى جمّعتم غير ما ألف عيسى بن عمر
ذاك اكمالٌ وهـــذا جـامع وهمـا للناس شمسٌ وقمر

وكان عيسى ضريراً • وقد روى عنه سيبويه في كتابه ٢٢مرّة•

---

(٤٥) اخبار النحويين البصريين : ٢٥
(٤٦) مراتب النحويين ٢١ وطبقات الزبيدي ٣٥
(٤٧) اخبار النحويين ٢٥
(٤٨) مراتب النحويين ٢٣ • وينظر في ترجمة عيسى مقالة للدكتور عبدالحسين المبارك في مجلة الخليج العربي ع ١

ومن شيوخه أبو الخطّاب الأخفش[٤٩] عبدالحميد بن عبدالمجيد ، مولى قيس بن ثعلبة . من أكابر علماء العربية ومتقدّميهم ، ومن أئمة اللغة والنحو ، وله الفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب . وأخذ عنه أبو عبيدة معمر بن المثنى ويونس[٥٠] وغيرهم . ترجمه الزبيدي في الطبقة الرابعة من النحويين البصريين ، ولم أجد من ذكر تاريخا لوفاته من القدماء . وفي مقدّمة أخبار النحويين البصريين رأيت المحققين أرّخا لوفاته عام ١٥٧هـ .

وقد أخذ عنه سيبويه اللغة[٥١] . وروى عنه في كتابه ٤٧ مرّة .

ومنهم الخليل بن أحمد الفراهيدي . أبو عبدالرحمن بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي من أزد عُمان . نشأ في البصرة وأخذ عن علمائها مثل عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء . كما رحل الى البادية غير مرّة ، يأخذ عن فصحائها . قيل عنه : كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، وهو أول من استخرج العروض وحصّن أشعار العرب بها . قال السيرافي : وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل ، وكل ما قاله سيبويه «وسألته» أو «قال» من غير أن يذكر قائله فهو الخليل[٥٢] .

وذكروا أن سيبويه عقد أبواب كتابه بلفظه ولفظ الخليل[٥٣] .

---

(٤٩) ينعت في كتب الطبقات بالكبير تمييزاً له عن الاخفش الاوسط أبي الحسن سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥) وابي الحسن علي بن سليمان البغدادي الأخفش الصغير (ت ٣١٥ هـ)

(٥٠) نزهة الالباء ٢٩ وطبقات الزبيدي ٣٥

(٥١) ابن النديم ٥١ ، القفطي ٢/٣٤٦ ، ابن خلكان ٣/٤٦٣

(٥٢) اخبار النحويين البصريين : ٣٠

(٥٣) مراتب النحويين ٦٥

ووصفه المبَرد بأنَّه لم يكن قبله ولا بعده مثله[٥٤] .

ويروى عن محمد بن سلام أنَّه قال : سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع [٥٥] .

وكانت وفاة الخليل عام **١٧٠** أو **١٧٥** عن أربعة وسبعين عاما[٥٦] وقيل عام ١٦٠هـ[٥٧] .

ومعروف أنَّ سيبويه لازم الخليل اكثر ممّا لازم أياً من شيوخه الآخرين ، وأنَّ أثره فيه أوضح من أيّ أثر لسواه . يتجلّى ذلك في كثرة ماروى عنه «فجملة ما روى عنه في الكتاب **٥٢٢** مرَّة ، وهو قدر لم يرو مثله ولا قريبا منه عند أحد من أساتذته»[٥٨] .

ومن شيوخ سيبويه يونس بن حبيب أبو عبدالرحمن ، من موالى ضبّة واليها ينسب . وحبيب اسم أمّه . أخذ عن أبي عمرو بن العلاء[٥٩] وحمّاد بن سلمة[٦٠] وسمع اللغة عن رؤبة وكان شديد الاختصاص به[٦١] . وسمع من العرب كما سمع من قبله . وكانت له مذاهب وأقيسه تفرّد بها[٦٢] .

---

(٥٤) نفس المصدر ٢٧
(٥٥) نفس المصدر ٢٨
(٥٦) طبقات النحويين للزبيدي ٤٧
(٥٧) نزهة الالباء ٣٢
(٥٨) سيبويه امام النحاة ٨٩ . وينظر في ترجمة الخليل ، د . المخزومي : الخليل بن أحمد الفراهيدي .
(٥٩) أخبار النحويين البصريين ٢٧
(٦٠) طبقات الزبيدي ٤٨
(٦١) مراتب النحويين ٢٢
(٦٢) نزهة الالباء ٣٢

وكانت حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء الأعراب والبادية[٦٣] • وممن أخذ عنه الكسائي والفراء اماما الكوفيين ، وأبو عبيدة والأخفش الأوسط من البصريين وغيرهم كثير •

قال المبرد : سمعت أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ يقول : مات يونس بن حبيب سنة اثنتين وثمانين ومئة ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة •

«وجملة ما روى عنه سيبويه في الكتاب ٢٠٠ مرة ، وهو قدر يلي في عدده قدر ما روى عن الخليل • وكان يروي عن أبي عمرو من طريق يونس قليلا ، وعن ابن أبي اسحاق من طريقه في بعض الأحيان»[٦٤] •

ومن شيوخ سيبويه أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري الخزرجي•

أخذ عن أبي عمرو بن العلاء ورؤبة بن العجاج وعمرو بن عبيد وغيرهم • وهو من رواة الحديث ، ثقة ، مأمون[٦٥] •

قال السيرافي : وفي كتبه المصنفة في اللغة من شواهد النحو عن العرب ما ليس لغيره • وقال : ولا نعلم أحداً من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب الا أبا زيد ، فانه روى عن المفضل الضبي[٦٦] •

ونقلوا عن المبرد قوله : كان أبو زيد عالماً بالنحو ولم يكن مثل

---

(٦٣) اخبار النحويين ٢٧
(٦٤) سيبويه امام النحاة ٩٠ وينظر في ترجمة يونس . د . حسين نصار : يونس بن حبيب (القاهرة)
(٦٥) مراتب النحويين ٤٢
(٦٦) اخبار النحويين البصريين ٤١

الخليل وسيبويه[٦٧] • توفي أبو زيد سنة ٢١٥هـ عن أربع وتسعين سنة[٦٨] •

قال الأستاذ النجدي : ولم أر من الرواة من ذكر أنّ سيبويه أخذ عن أبي زيد ، ولم أر سيبويه في الكتاب يروى عنه ، ويقول السيرافي : وذكر أبو زيد النحوي ـ كالمفتخر بذلك بعد موت سيبويه ـ قال : كلّما قال سيبويه : وأخبرني الثقة فأنا أخبرته • وهو كلام يدل على أنّ السيرافي يشك في صحة هذه الدعوى ، لأنّه يحمّله تبعتها ويردّها فيه الى ما يشبه الفخر بها ، ولكن بعد موت سيبويه • ثمّ يقول : وأرى برغم ذلك أنّ أبا زيد حقيق بالتصديق وحقيق أن يعدّ مع شيوخ سيبويه ، فقد قال سيبويه في الكتاب : وأخبرني الثقة أو ما يشبهها غير مرّة ، وادّعى أبو زيد أنّه المعني بها ، ولم يذكر الرواة أن أحداً نازعه ايّاها ، وكان الرجل من أهل الثقة وروى له أبو داود والترمذي[٦٩] •

والحقّ أن الأستاذ النجدي كان موفّقاً في تصديق أبي زيد وعدّه ايّاه من شيوخ سيبويه • فقد روى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ عن أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) عن أبي زيد أنّه قال : كان سيبويه غلاماً يأتي مجلسي وله ذؤابتان • قال : واذا سمعته يقول : أخبرني من أثق بعربيّته ، فأنمّا يريدني[٧٠]

---

(٦٧) المصدر السابق ٤١
(٦٨) مراتب النحويين ٤٤ وطبقات الزبيدي ١٨٣
(٦٩) سيبويه امام النحاة ٩٢ ، وانظر أخبار النحويين للسيرافي ٣٧
(٧٠) المعارف لابن قتتيبة ٥٤٤ ومراتب النحويين ٤٢

وهذه الرواية ينقلها القفطي عن غير طريق ابن قتيبة . قال : كتبت من خطّ محمد بن عبدالملك . حدّثنا ابراهيم بن مهدي ، قال : حدّثنا سهل بن محمد (أبو حاتم) قال : سمعت أبا زيد الأنصاري يقول : كان سيبويه غلاما يأتي مجلسي ولـه ذؤابتان . قال : واذا سمعته يقول : حدّثني من أثق بعربيّته ، فأنمّا يعنيني[٧١] .

فالواضح من هاتين الروايتين أنّ سيبويه كان يتردّد على حلقة أبي زيد أو مجلسه ليأخذ عنه . فهو إذن من شيوخه الذين أخذ عنهم . أما أن يكون مقصوداً بعبارة «من أثق به» أو «أثق بعربيته» أو لا ، فلهذا موضع آخر للحديث عنه .

هؤلاء هم أبرز شيوخ سيبويه الذين أخذ عنهم ، ممّن ذكرهم أصحاب الأخبار والطبقات . ويضيف الأستاذ النجدي اليهم هارون بن موسى البصري المتوفّى حوالي عام ١٧٠هـ . ولـه مـن التصانيف «الوجوه والنظائر في القرآن»[٧٢] وفيه تتبع وجوه القرآن وجمعهـا الى بعضها .

وقد روى سيبويه عنه خمس مرّات كلّها من القراءات .

كما يرد بين شيوخ سيبويه ، ممن نقل عنهم في الكتاب أو روى لهم ، أبو عمرو بن العلاء المتوفي سنة ١٥٤هـ . وهو من شيوخ البصرة في القراءة والنحو واللغـة ، والرواية عنه فيها كثيرة . وقد أخذ عنه يونس والأصمعي واليزيدي .

---

(٧١) انباه الرواة ٢/٣٥٠ .
(٧٢) يعكف كاتب هذه السطور بالاشتراك مع الدكتور خليل العطية على تحقيق هذا الكتاب .

وكان سيّد الناس وأعلمهم بالعربيّة والشعر ومذاهب العرب[٧٣] .

«وقد نقل سيبويه عن أبي عمرو ٤٤ مرّة ، يذكر في أكثرها أنّ الرواية عن يونس ويضمر في أقلّها السند أو يغفله جملة»[٧٤]

شخصية سيبويه ومواهبه :

كانت شخصيّة سيبويه مثاراً لاهتمام معاصريه وارتياحهم ، فهو بما جبل عليه من ظرف وما رزق من مواهب تجلّت في ذكائه وتوقّد ذهنه وثقته بنفسه مع عناية واضحة بحسن مظهره تمكن من أن يستأثر بأعجاب معاصريه وشيوخه . فعبيدالله بن محمد المعروف بابن عائشة (ت ٢٢٨هـ) يروي قائلا : كنا نجلس مع سيبويه النحوي في المسجد ، وكان شابا جميلا نظيفا قد تعلّق من كل علم بسبب ، وضرب فيه بسهم ، مع حداثة سنّه وبراعته في النحو ، فبينا نحن عنده ذات يوم اذ هبّت ريح أطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : انظر أيّ ريح هي ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس من صُفر ، فنظر ثمّ عاد فقال : ما يثبت الفرس على شيء . فقال سيبويه : العرب تقول في مثل هذا : تذاءبت الريح ، أي فعلت فعل الذئب ليخيل ، فيتوهم الناظر أنّه عدّة ذئاب[٧٥] .

فسيبويه إذن يتصدّر لتدريس النحو ببراعة مع حداثة سنّه ، وهو لا ينسى أن يستثمر ثقافته اللغوية للتعليق على ما عرض لهم من

---

(٧٣) مراتب النحويين ١٥ ، وانظر السيرافي ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٢ .
(٧٤) سيبويه امام النحاة ٩٥
(٧٥) طبقات الزبيدي ٦٧ ، وتاريخ بغداد ١٩٧/١٢ .

أحوال الجو ، مصدقا كلام ابن عائشة بأنه قد تعلق من كل علم بسبب وضرب فيه بسهم •

وروى ابن النطاح قال : كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه فقال الخليل : مرحبا بزائر لا يمل • قال أبو عمرو المخزومي - وكان كثير المجالسة للخليل - : ما سمعت الخليل يقولها الا لسيبويه(٧٦) •

وقال أحمد بن معاوية بن بكر العليمي : ذكر سيبويه النحوي عند أبي فقال : عمرو بن عثمان ، قد رأيته • وكان حدث السن • كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد • وقد سمعته يتكلم ويناظر في النحو ، وكانت في لسانه حبسة ، ونظرت في كتابه فقلمه أبلغ من لسانه(٧٧) •

ويروي الزبيدي عن الرياشي أنه قال : سمعت عمرو بن مرزوق يقول : رأيت سيبويه والاصمعي يتناظران ، قال : يقول يونس بن حبيب : الحق مع سيبويه ، وقد غلب ذا - يعني الأصمعي بلسانه(٧٨) •

وسأترك للقارىء اللبيب تدبر هذه المرويات فهي بينة الدلالة على ما نريد أن نقرر أو ما قررنا عن شخصية سيبويه ومواهبه •

ويبدو أن حدة ذهنه وشدة ذكائه كانتا مبعث ضيق لدى

---

(٧٦) طبقات الزبيدي ٦٨ ومعجم الادباء ٨٢/٦ ووفيات الاعيان ٤٦٣/٣

(٧٧) نفس المراجع

(٧٨) طبقات الزبيدي ٦٨

بعض شيوخه ممّن كانوا يواجهون الحرج من جرّاء أسئلته الدقيقة .
حدّث المازني قال : قال الاخفش : كنت عند يونس فقيل له : قد أقبل سيبويه .

فقال : أعوذ بالله منه .

قال : فجاء فسأله ، فقال : كيف تقول : مررت به المسكين ؟
فقال : جائز أن أجرّه على البدل من الهاء ، قال : فقال له : فمررت به المسكينُ ، على معنى : المسكينُ مررت به . فقال : هذا خطأ، لأنّ المضمر قبل الظاهر . قال : فقال له : انّ الخليل أجاز ذلك وأنشد فيها أبياتا . فقال : هو خطأ . فغمّني ذلك . قال : فمررت به المسكينَ فقال : جائز . فقال : على أى شيء ينصب ؟

فقال : على الحال . فقال سيبويه : أليس أنت أخبرتني أنّ الحال لاتكون بالألف واللام ؟

فقال له صدقت . ثم قال لسيبويه : فما قال صاحبك فيه ؟ يعني الخليل . فقال سيبويه : قال لي : انّه ينصب على الترحّم . فقال : ما أحسن هذا ورأيته مغموما بقوله نصبته على الحال[٧٩] .

واذا كان لنا أن نضيف الى شخصيّة سيبويه سمة أخرى فهي لا شك ثقته بنفسه وبقدرته على التمكن من العلم الذى انصرف اليه ووهبه كلّ طاقته وجهده فنبغ فيه مبكّراً وفاق أقرانه ممّن كانوا في سنّة أو أسنّ منه .

فقد روى المازني قال : حدّثني الأخفش قال : حضرت مجلس

---

(٧٩) معجم الادباء ٨٧/٦

الخليل فجاءه سيبويه فسأله عن مسألة وفسّرها له الخليل فلم أفهم ما قالا . فقمت وجلست له في الطريق . فقلت له : جعلني الله فداءك ، سألت الخليل عن مسألة فلم أفهم ما ردّ عليك ففهّمنيه . فأخبرني بها فلم تقع لي ولا فهمتها . فقلت له : لاتتوهّم أني أسألك اعناتا فأنّي لم أفهمها ولم تقع لي ، فقال لي : ويلك ، ومتى توهمت أنني أتوهم أنك تعنتني . ثم زجرني وتركني ومضى[80] .

ومثل هذا ما رواه السيرافي عن المبرد قال : كان الأخفش أكبر سناً من سيبويه ، وكانا جميعاً يطلبان . قال : فجاءه الأخفش يناظره بعد أن برع ، فقال له الأخفش : انمّا ناظرتك لأستفيد لا لغيره . فقال سيبويه : أتراني أشك في هذا[81] (؟) .

وروى محمّد بن سلام قال : كان سيبويه النحوي جالساً في حلقته بالبصرة فتذاكرنا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر حديثاً غريبا وقال : لم يرو هذا الا سعيد بن أبي العروبة . فقال له بعض ولد جعفر بن سليمان : ما هاتان الزائدتان يا أبا بشر ؟

---

(80) لابد من الاشارة هنا الى أن أبا الطيب اللغوي يروي عن المبرد ان الأخفش لم يأخذ عن الخليل ويقول ابن جني في الخصائص ٣١١/٣ وقال لنا ابو علي رحمه الله يكاد يعرف صدق ابي الحسن ضرورة ، وذلك أنه كان مع الخليل في بلد واحد فلم يحك عنه حرفاً واحداً . اهـ ولكن الزبيدي ينص على انه صحب الخليل قبل صحبته لسيبويه . والسيرافي يقول عنه : ولقى من لقيه سيبويه من العلماء . وانظر مراتب النحويين ٦٨ والزبيدي ٧٤ والسيرافي ٣٩ وياقوت ٨٧/٦

(81) اخبار النحويين ٣٨

فقال : هكذا يقال ، لانّ العروبة هي الجمعة ، ومن قال : عروبة ، فقد أخطأ .

قال ابن سلام : فذكرت ذلك ليونس فقال : أصاب ، لله دره (٨٢) .

والى أبعد من هذا ذهبت ثقة سيبويه بنفسه . فقد ذهب يتحدّى الأصمعي ليناظره . فقد روى أبو حاتم عن الأصمعي أنّه قال : عرِض عليّ شيء من الأبيات التي وضعها سيبويه في كتابه ففسّرتها على خلاف ما فسّره ، فبلغ ذلك سيبويه . فبلغني أنّه قال : لأُناظرنّه في المسجد الجامع . نصلّيت يوماً في الجامع ثم خرجت فتلقّاني في المسجد ، فقال لي : اجلس يا أبا سعيد ، ما الذي أنكرت من بيت كذا وبيت كذا وبيت كذا ؟ ولم فسّرت على خلاف ما يجب ؟

فقلت له : ما فسّرت الا على ما يجب ، والذي فسّرته أنت ووضعته خطأ . تسألني وأُجيب . ورفعت صوتي فسمع العامّة فصاحتي ونظروا الى لكنته ، فقالوا : لقد غلب الأصمعي سيبويه . فسرّني ذلك . فقال لي : اذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك منّي لم ألتفت الى قول هؤلاء . ونفض يده في وجهي ومضى .

---

(٨٢) طبقات الزبيدي ٦٧ . وفي اللسان والتاج (عرب) : عروبة والعروبة كلتاهما الجمعة . بلا لام وباللام . وفي الصحاح : ابن أبي العروبة بالالف واللام ، وتركها لحن أو قليل . قال صاحب التاج : وقال شيخنا : وذهب بعض الى خلافه وان اثباتها هو اللحن لان الاسم وضع مجرداً .

ثم قال الأصمعي : يابنـّي فوالله لقد نزل بي منه شيء وددت أني لم أتكلم في شيء من العلم [٨٣]

ولعلّ هذه الثقة بالنفس ـ وهذه الحكاية تصوّر جانباً منها أبلغ تصوير ـ يحدوها الطموح البعيد في الحظوة والمنزلة لدى ذوي الجاه والسلطان هي التي دفعته الى أن يغادر موطنه قاصـداً بغـداد يطلب مناظرة الكسائي ـ وهو يومذاك شيخ النحاة ومقرىء بغـداد ومؤدّب أولاد الخليفـة ـ أملاً منه في أن يبلغ عنـد رؤسائها ما بلغه الكسائي وأصحابه من منزلة وحظوة •

حكاية المناظرة :

اتخذت هذه المناظرة الخطيرة في مبدأ أمرها شكلاً مسرحياً مثيراً ما لبثت أن تحوّلت بعده الى واقعة بارزة في تاريخ النحو واللغة العربية ، تناقلها كتب الطبقات والتراجم وتروي لها عدة صور تختلف في أحداثها وتتباين في أوضاعهـا ، حتى إنَّ بعض كتب التراجم نقلت لهـا ـ في سـياق واحد ـ ثلاث روايات عن ثلاثة مصـادر ، أحدها بصري عن الأخفش والآخر كوفي عن الفـراء والثالث مشـترك بين البصريين والكوفيين منقول عن المبرّد وثعلب معاً [٨٤] •

وبلغ من اهتمام الناس بها أنَّ بعضهم نظمها شعراً ضمن منظومة له في النحو [٨٥] وتتجلى أهمية هذه المناظرة في أنـّها كانت بين عالمين

(٨٣) معجم الادباء ٨٧/٦

(٨٤) ينظر طبقات الزبيدي ٦٨ وما بعدها

(٨٥) هو الاديب ابو الحسن حازم بن محمد الانصاري القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) وانظر المغني ٨٨/١ وديوان حازم القرطاجني •

يرأسان مدرستي البصرة والكوفة . ومع الكوفي منهما عصبة من تلاميذه المتفوقين ممن خلفوه في زعامة مدرستهم .

وتتجلى أيضاً في أنَّها كانت تعبيراً عن صورة الطموح الذي كانت تجيش به نفس سيبويه والآمال التي كان يحدّث بها نفسه في أن يغنم من الحياة بقدر ما وهب لها وما حقّق من عمل علمي شامخ .

قال الأعلم الشنتمري : وأما سبب وفوده (سيبويه) على الرشيد ببغداد وتعرّضه لمناظرة الكسائي والفرّاء فلِما كانا عليه من تمكّن الحال والقرب من السلطان ، وعلوّ همّته ، وطلبه للظهور مع ثقته بعلمه ، لأنه كان أعلم أهل زمانه ، وكان بينه وبين البرامكة أقوى سبب [(٨٦)] .

وهي بعد هذا كلّه وأهم من هذا كلّه تتجلّى في أنَّها كانت بداية النهاية بالنسبة لهذا العالم الطموح واختفاء شخصه ـ دون أثره ـ عن مسرح الحياة العلمية وانقطاع خبره إلاّ ما تعلّق بقصة موته وأنباء احتضاره أو ما هو قريب من هذا .

والرواة يختلفون ـ كما قلنا ـ في حكاية الصورة التي جرت عليها أحداث المناظرة . منهم من يروي أنها بدأت بأن اقتحم سيبويه ـ بعد وصوله بغداد قادماً من البصرة ـ حلقة الكسائي وفيها غلمانه ، الفرّاء وهشام وعلي بن المبارك الأحمر وغيرهم ، فقالوا له : لا تكلّمه ودعنا وإيّاه ، فأنَّ العامة لا تعرف ما يجري بينكما وتغليبها بالظاهر ،

---

(٨٦) نفح الطيب ٥/٢٢٥

فدعنا وإيّاه • فلما جلس سيبويه سأل عن مسائل والفرّاء يجيب • ثم قال الفرّاء : ما تقول في قول الشاعر :

تَمُتُّ بقُرْبَى الزينبَيْنِ كلاهما
إليك وقُربَى خالدٍ وسعيد (٨٧)

فلحق سيبويه حيرة السؤال وقال : أريد أمضي لحاجة وأدخل• فلما خرج قال الفرّاء لأهل الحلقة : قد جاء وقت الانصراف فقوموا بنا • فقاموا ، فخرج سيبويه فذكر علّة البيت ، فرجع فوجدهم قد انصرفوا (٨٨) •

هذه الرواية ينقلها الخطيب البغدادي بسنده مرفوعة الى سلمة بن عاصم تلميذ الفرّاء • وهي تختلف في تسلسل أحداثها وما جرى فيها من حوار عن سائر الروايات التي تكاد تتفق على صيغة مغايرة لهذا الحوار وان اختلفت في تعيين الطرف الذى سعى الى طلب المناظرة أو الجهة التي هيّأت لها والمكان الذي جرت فيه •

ويبدو لي أن هذه الرواية التي يرويها البغدادي هي لمناظرة أخرى تقدّمت المناظرة المشهورة بالمسألة الزنبوريّة • يرجّح هذا الاعتقاد أنّ سيبويه لم يهزم فيها بشكل نهائي • كما أنّه هو الذي بدأ الأسئلة هنا في حين أنّه اقترح على الكسائي أو أصحابه أن

---

(٨٧) البيت نسبه العيني لهشام بن معاوية • وروايته عند ابن عصفور وغيره : كليهما . وهو للمذكر واستعمله للمؤنث . العيني على هامش الخزانة ١٠٦/٤ وشرح الجمل لابن عصفور ١٥١/١

(٨٨) تاريخ بغداد ١٩٧/١٢ .

يسألوه في المناظرة الثانية ثقـة منه أنّه لن يحرج أمامهـم مهما كانت أسئلتهم وابتغاءً لأسلوب آخر من أساليب الحوار بعد أن جرّب أن يكون هو البادئ بالسؤال .

يرجّحه أيضاً أنّه كان يسعى في المرّة الثانيـة الى أن تكون المناظرة على مشهد من الملأ ممّن كان بيدهم الحلّ والعقد أملاً في أن تكون عامل الحسم في القضية التي وفد من أجلها ، وهي قضية المنافسة على زعامة النحو أو تثبيت موطئ قدم له في بغداد .

أمّا المناظرة المشهورة بالمسألة الزنبورية وهي تختلف عن هذه التي أثبتناها ، فالزبيدي ، في واحدة من ثلاث روايات أثبتها ، ينقل عن ابن النحاس عن ثعلب والمبرّد ، أن سيبويه لما ورد العراق (بغداد) شـقّ أمره على الكسائي فالتجـأ الى جعفر بن يحيى البرمكي وأخيه الفضل قائلاً : أنا وليّكما وصاحبكما ، وهذا الرجل انّما قدم ليذهب محلّي . قالا : فاحتل لنفسك فانّا سنجمع بينكما .

فجمعا عنـد البرامكة وحضر سـيبويه وحده وحضر الكسـائيّ ومعه الفرّاء والأحمر وغيرهما من أصحابه فبدأت المناظرة ثمّ انتهت بتسلسلها الذي سنرويه فيما بعد [٨٩] .

وفي رواية ثانية ينقـل الزبيدي المناظرة كما رواهـا الأوارجيّ الكاتب عن أبي جعفر الطبري (ت ٣٠٤ هـ) عن المازني عن الأخفش أن سيبويه لما قدم على يحيى بن خالد البرمكي سأله عن خبره والحال التي ورد لها فقال : جئت لتجمع بيني وبين الكسائي .

---

(٨٩) طبقات الزبيدي ٦٨

فقال له : لا تفعل ، فانّه شيخ مدينة السلام وقارئها ومؤدب ولد أمير المؤمنين وكل من في المصر له ومعه .

فأبى إلاّ أن يجمع بينهما . فعرّف الرشيد خبره ، فأمر بالجمع بينهما ، فوعده بيوم . فلما كان ذلك اليوم غدا الى دار الرشيد فوجد الفرّاء والأحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه . فسأله الأحمر عن مئة مسألة فأجابه عنها ، فما أجابه بجواب إلاّ قال: أخطأت يا بصريّ . فوجم لذلك سيبويه .

ووافى الكسائي ومعه خلق من العرب ...

الى آخر الحكاية التي تنتهي بانقسام الأعراب الذين اجتلبوا لسماع ما يقولون الى طائفتين ، احداهما قالت بما قال الكسائي والثانية قالت بما قال سيبويه .

فقال سيبويه : أما عرب بلدنا فلا تعرف إلاّ « هو هي » .

فخطأته الجماعة وَحصِر ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف درهم وصرفه .

وهذه الرواية ينقلها أيضاً القفطي ومعاصره ياقوت على النحو الذي بدأت به هنا . إلاّ أنّهما يختمانها على نحو ما انتهت عند الزبيدي في روايته الثالثة التي سنرويها ، وهي التي جاءت بنصّها عند الزجّاجي [٩٠] .

ويلاحظ على الرواية المنقولة آنفاً أنّها أولاً : تحدد مكان المناظرة في دار الرشيد ، ويراد بها دار الخلافة حيث يعقد البرامكة

---

(٩٠) مجالس العلماء ٨ وانظر انباه الرواة ٣٥٨/٢ ومعجم الادباء ٨٣/٦

مجلسهم للنظر في أمور الدولة والرعيّة ، ممّا أوهم بعض الناقلين أنّها كانت بحضرة الرشيد [٩١] .

ثانياً : تذكر أنّ الأحمر سأل سيبويه مئة مسألة فما أجابه بجواب إلاّ قال : أخطأت يابصري . وهذه قضيّة مستبعدة ، فلا يعقل أن سيبويه رزق كل هذا الصبر حتى يظل صامتاً أمام تعقيبات الأحمر القاسية على اجاباته وهو الرجل المعتدّ بعلمه الواثق بنفسه . ثمّ هل يتصوّر أن سيبويه يعجز عن اجابة كلّ هذا العدد من المسائل ؟

الذي يبدو لي أنّ هذه الرواية ملتبسة بما روي من مناظرة الأخفش للكسائي وسؤاله إيّاه مئة مسألة خطّأه فيها جميعاً ـ كما يروون ـ ثأراً لصاحبه المخذول [٩٢].

ثالثاً : في هذه الرواية الغاء لدور الفرّاء الذي تنصّ الروايات الاخرى على أن له دوراً واضحاً في توجيه الأسئلة لسيبويه قبل أن يحضر الكسائي .

رابعاً : تذكر هذه الرواية أنّ سيبويه احتجّ بأنّ عرب البصرة الذين يفدون عليها (أعراب بلدنا) فيسمع منهم لا يقولون مثل ذلك. وهذا لا نجده في الروايات الأخرى .

خامساً : في هذه الرواية نجد من الأعراب من يشهد لسيبويه فيما ذهب اليه ، وهو أمر لا نجده في أي من الروايات الاخرى ، على أنّنا لا نستبعد أن يكون ذلك قد وقع . فهو أمر يدفع عن الكسائي

---

(٩١) نفح الطيب (عن الاعلم الشنتمري) ٥/٢٢٥ .
(٩٢) طبقات الزبيدي ٧١

ـ أحـد القراء السبعة ـ تهمة تلقين هؤلاء الأعـراب أن ينطقوا النصب فقط .

فلولا أن للنصب وجهاً في العربية أو ذكر على ألسـنة بعض الأعراب ممن لا يعتـدّ بهم البصريون [٩٣] ما كان الكسائي يختـاره موضوعاً للمناظرة . بل إنّ اختياره لهذه المسألة بالذات ، وهو يعلم أن البصريين لا يقرّون النصب فيها ، جزء من خطته التي (احتـال لنفسه بها) لهزيمة خصمه ومنافسه الخطير . الأمر الذى أراد أن يكفّر عنه فاقترح على يحيى أن يهب سيبويه شيئاً فلا يردّه خائباً بعد ما لحقه من ذلّ الهزيمة المبيّتة .

والرواية الثالثـة التي يسردها الزبيدي للمناظرة عن ثعلب عن سلمة بن عاصم عن الفرّاء ، ويرويها قبله الزجّاجي (ت ٣٤٠ هـ) في مجالس العلمـاء عن علي بن سليمـان الأخفش عن المبرّد وثعلب وغيرهما عن سلمة عن الفرّاء ، ويتّفق معهما في رواية شطرها الأخير القفطي وياقوت فتقول : قال الفرّاء :

قدم سيبويه على البرامكة فعزم يحيى بن خالد على الجمع بينه وبين الكسـائي ، فجعل لذلك يومـاً . فلما حضر تقدّمت والأحمـر فدخلنا ، فاذا تمثال في صـدر المجلس . فقعد عليه يحيى وقعـد الى جانب التمثال جعفر والفضـل ومن حضر بحضورهم وحضر سيبويه فأقبل عليه الأحمر فسأله عن مسـألة أجاب فيها سـيبويه ، فقال له :

---

(٩٣) ينظر احتجاج الكوفيين للنصب في الانصاف مسألة ٩٩ ونفح الطيب ٥/٢١٩

أخطأت . ثم سأله عن ثانية فأجابه فيها ، فقال له أخطأت . ثم سأله عن ثالثة فأجابه فيها فقال له : أخطأت ، فقال له سيبويه : هذا سوء أدب !

قال : فأقبلت عليه فقلت : إنَّ في هذا الرجل حدّاً وعجلة ، ولكن ما تقول في من قال : هؤلاء أبون ومررت بأبين ، كيف تقول مثال ذلك من وأيت أو أويت ؟

قال : فقدّر فأخطأ . فقلت : أعد النظر فيه . فقدّر فأخطأ . فقلت : أعد النظر ، ثلاث مرّات يجيب ولا يصيب . قال : فلما كثر ذلك قال : لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره .

قال : فحضر الكسائي فأقبل على سيبويه فقال : تسألني أو أسألك ؟

قال : لا بل سلني أنت .

فأقبل عليه الكسائي فقال له : ما تقول أو كيف تقول : قد كنت أظن أنَّ العقرب أشد لسعة من الزُنبور فاذا هو هي أو فاذا هو إياها ؟

فقال سيبويه : فاذا هو هي . ولا يجوز النصب .

فقال له الكسائي : لحنت . ثمّ سأله عن مسائل من هذا النوع : خرجت فاذا عبدالله القائمُ أو القائمَ ؟ فقال سيبويه في كل ذلك بالرفع دون النصب .

فقال الكسائي : ليس هذا كلام العرب ، العرب ترفع في ذلك كلّه وتنصب .

فدفع سيبويه قوله ، فقال يحيى بن خالد : قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن ذا يحكم بينكما ؟

فقال الكسائي : هـذه العرب ببابك قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع وهم فصحاء الناس وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم فيحضرون ويسألون.

فقال يحيى وجعفر : لقد أنصفت . وأمر باحضارهم ، فدخلوا وفيهم أبو فقعس وأبو زياد (أو دثار) وأبو الجرّاح وأبو ثروان فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه ، فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله .

قال : فأقبل يحيى على سيبويه فقال له : قد تسمع أيها الرجل .
قال : فاستكان سيبويه وأقبل الكسائي على يحيى فقال : أصلح الله الوزير ، انّه قد وفد عليك من بلده مؤملاً فان رأيت ألا ترده خائباً . فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج وصيّر وجهه الى فارس فأقام هناك حتى مات ولم يعد الى البصرة (٩٤) .

وهذه الرواية تتفق مع رواية الزبيدي الأولى في أنّ انعقاد مجلس المناظرة كان بتدبير من يحيى بن خالد البرمكي ، ولكنّها تهمل ما جاء في الرواية الاولى من أمر التجاء الكسائي الى جعفر والفضل ابني يحيى البرمكي ليكفّا عنه غائلة هذا الوافد الغريب الذي جاء ليذهب محلّه عند أولياء نعمته كما كان يظنّ .

وهي أيضاً لا تنفي أن يكون تدبير يحيى للمناظرة بطلب من سيبويه كما تقول الرواية الثانية .

---

(٩٤) مجالس العلماء ٨ وطبقات الزبيدي ٧١ وانباه الرواة ٢/٣٥٨ ومعجم الادباء ٦/٨٣

ثم انَّها تتفق مع الرواية الثانيــة في أن أحداث المناظــرة جرت على شطرين ، الأول بين سيبويه وأصحاب الكسائي ، والثاني بين سيبويه والكسائي نفسه . وكأنَّــهم أرادوا ـ كما يقول الاستاذ النجدى ـ أن يناجزوا سيبويه ويستدرجوه للمناظرة قبل الكســائي ليفلّوا من حدّته ويخضدوا من شوكته ، فيلقى الكسائي وقد فقد شيئاً ممّا يلقى بــه المهاجم منافسه من حماسة وثقة وتصميم[٩٥] .

واذا كان بعض الناس ـ قدامى أو محدثين ـ يريدون أن يتخذوا من هذه المناظرة مناسبة لأدانة الكسائي وأصحابه الكوفيّين واتهامهم بتلقين الأعراب أو الادعاء بأنّ أصبع السياسة لعبت دورا في تدبير المناظرة وانهائها على النحو الذي انتهت اليه[٩٦] فأنّنا لانريد أن نردّ ادعاءهم بأفضل ممّا ردّ به الأستاذ النجدى وهو كما نعلم من خيرة علماء هذا العصر ، لم يشأ أن يترك الانفعال يجد الى نفسه سبيلا ولا العصبية الى أيّ من طرفي القضية تتملك عليه وعيه وبصيرته ، فقال فيها ـ بعد أن استوعب حوادثها وأخبارها ووعاها ـ فأوفى القــول وانصف أطراف القضية حين بيّن مالهم وما عليهم في هذه الحادثــة الخطيرة في تاريخ النحو والنحاة[٩٧] .

بين اليأس والرجاء :

لم تكن الهزيمــة المفتعلة التي لحقت بسيبويه أو ألحقها بــه خصومه الكوفيون قادرة على أن تقتلع جذور الامل من نفسه وتدفعه

---

(٩٥) سيبويه امام النحاة ١٠٤
(٩٦) ضحى الاسلام ٢/٢٩٤
(٩٧) سيبويه امام النحاة ١٠٠

الى اليأس من المستقبل الذى ظل يحلم به أسوة بأصحاب المواهب والعبقرية من معاصريه •

فهو حين قدّر صعوبة العودة الى البصرة بعد ما جرى له مع منافسيه وأنّه لن يجد فيها اكثر مما كان يجد فيها من قبل سأل عمن يبذل من الملوك ويرغب في النحو ، فقيل له طلحة بن طاهر (ت٢١٣هـ) فشخص اليه الى خراسان • فلما انتهى الى ساوة مرض مرضه الذى مات فيه[٩٨] •

والتاريخ يحدثنا أن طلحة كان عام ١٨٠هـ ـ وهي السنة التي يرجح أن سيبويه مات فيها ـ مع أبيه طاهر بن الحسين حين كان والياعلى بوشنج من قبل عليّ بن عيسى بن ماهان ، وهي من اعمال خراسان • أما ولايته على خراسان عامة فتبدأ عند موت والده عام ٢٠٧هـ وتنتهي بوفاته هو عام ٢١٣هـ[٩٩] •

وهذه الحكاية التي رواها الخطيب البغدادي وأخذها عنه من جاءوا بعده هي التي أوحت الى ابن الجوزى القول بأنه توفي في ساوه[١٠٠] ، مع انه لم يقل ذلك بل ذكر أنه مرض مرضه الذى مات فيه • وهذا لايعني أنه مات فيها •

ويجمع مؤرّخو سيبويه على أنه مات هما وكمدا مما لحقه من

---

(٩٨) تاريخ بغداد ١٩٨/١٢ ونزهة الالباء ٤١ والبداية والنهاية ١٧٧/١٠ وانباه الرواة ٣٥٧/٢

(٩٩) الكامل : حوادث سنة ١٨٠ ، ٢٠٧ والبداية والنهاية حوادث سنة ٢٠٧

(١٠٠) وفيات الاعيان ٤٦٤/٣

هزيمة في بغداد • وانه أصيب بالذرب ، وهو فساد المعدة أو المرض الذي لايشفى منه •

ويبدو لي أن سيبويه كان صادقا مع نفسه حين تمثل عند احتضاره بقول القائل

يؤمِّلُ دنيا لتبقى له فوافى المنيَّةَ دون الأمل
حثيثا يروّي أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل

لقد كان طموح سيبويه في الحياة لا حدود له ، دفعه الى بغداد يزاحم شيخها الكسائي على زعامة النحو ، ودفعه الى خراسان قاصدا من يبذل من الملوك ويرغب في النحو ،فوافته منيته أو وافاها دون ان يحقق أمله •

وكان سعيه ليدرك آماله حثيثا ، فقد حقق في حياته ـ على قصر أمدها ـ ما عجز عنه كثيرون من علماء عصره بل شيوخه • وقد روّى أصول فسيله فأحسن الرِّيَّ ، حتى عاش غرسه فصار دوحة عملاقة قارعت الايام وشمخت خالدة على مر العصور •

قال ياقوت : وحدثت عن النظام انه دخل على سيبويه في مرضه فقال له : كيف تجدك أبا بشر ؟

قال : أجدني ترحل العافية عني بانتقال وأجد الداء يخامرني بحلول ، غير أني وجدت الراحة منذ البارحة •

قلت : فما تشتهي ؟

قال : أشتهي أن أشتهي • فلما كان من بعد ذلك اليوم دخلت

اليه وأخوه يبكي وقد قطرت من دموعه على خده قطرة • فقلت : كيف تجدك ؟ فقال :

يسر الفتى ماكان قدّم من تقى   اذا عرف الداء الذى هوقاتله

قال النظام : ثم مات من يومه[101] •

مكان الوفاة وتاريخها :

تتعدد الروايات في تاريخ وفاة سيبويه وتتباين • فأقصى تاريخ تحدده هذه الروايات هو عام ١٦١هـ[102] • وأدني تاريخ هو عام ١٩٤هـ[103] • وبينهما يرد عام ١٧٧[104] وعام ١٧٩[105] وعام ١٨٠[106] وعام ١٨٨[107] •

أما الرواية الاولى فيرويها الخطيب البغدادي عن ابن قانع ، وعامة من جاءوا بعده ينقلونها عنه • وهي مردودة بأن سيبويه ناظر الكسائي في خلافة الرشيد ، وانما بويع الرشيد عام ١٧٠هـ • وعن هذه الرواية قال المرزباني : وهذا غلط قبيح ، لان سيبويه بقي بعد هذا مدة طويلة[108] •

---

(١٠١) معجم الادباء ٨٦/٦
(١٠٢) تاريخ بغداد ١٩٨/١٢ ووفيات الاعيان ٤٦٤/٣ ونزهة الالباء ٤٢ ومعجم الادباء ٨١/٦
(١٠٣) تاريخ بغداد ١٩٩/١٢ ووفيات الاعيان ٤٦٤/٣
(١٠٤) الفهرست لابن النديم ٥١ ووفيات الاعيان ٤٦٤/٣
(١٠٥) انباه الرواة ٣٤٨/٢
(١٠٦) تاريخ بغداد ١٩٩/١٢ ، طبقات الزبيدي ٧٤ وانباه الرواة ٣٥٣/٢ ومعجم الادباء ٨١/٦
(١٠٧) نزهة الالباء ٤٢ ووفيات الاعيان ٤٦٤/٣
(١٠٨) تاريخ بغداد ١٩٨/١٢

والرواية الثانية قرئت على ظهر كتاب لاحمد بن سعيد الدمشقي كما ينقل الخطيب البغدادي ويسندها ابن خلكان الى أبي الفرج بن الجوزي •

ويردها أن سيبويه مات قبل يونس كما يروي السيرافي ، وان وفاة يونس كانت عام ١٨٣هـ •

وقد حقق الاستاذ النجدى في بقية هذه الروايات بما لايحتاج الى اعادة ، ورجح أنه توفي عام ١٨٠هـ عن نيف واربعين عاما كما صححه ياقوت[١٠٩] • وهي الرواية التي نميل اليها ونطمئن الى صحتها •

أما مكان وفاة سيبويه فهو موضع اختلاف ايضا • فقيل توفي في البصرة[١١٠] • وهي كما بينا رواية واهية •

ويبدو لي ان مصدر هذا الوهم ما روي عن الاخفش من انه قال تعقيبا على روايته لقصة المناظرة : فلما دخل (أى سيبويه) الى شاطي البصرة وجه الي فجئته ، فعرفني خبره مع البغدادي وودعني ومضى الى الاهواز[١١١] •

وهذه الرواية كما نرى لاتتناقض وما يقال من أن سيبويه لم

---

(١٠٩) معجم الادباء ٨١/٦ وشذرات الذهب ٢٥٢/١ . وانظر تهذيب اللغة ١٩/١

(١١٠) تاريخ بغداد ١٩٨/١٢ ووفيات الاعيان ٤٦٤/٣

(١١١) طبقات الزبيدي ٧١

يدخل البصرة استحياء مما وقع عليه[112] أو لم يعرج على البصرة[113] .

فهو لم يدخلها وانما دخل الى شاطئها وبعث الى زميله وتلميذه الاخفش ليعرفه خبره ويودعه .

وعلى هذا النحو ينبغي ان نفهم ما رواه ابن النديم من أن سيبويه بعد أن غادر بغداد «عاد الى البصرة ومنها الى فارس ومات بها»[114]

وعودته الى البصرة لاتعني بالضرورة انه دخلها .

وقيل توفي في ساوه[115] . وهي وهم أيضا كما بينا سابقا . وقيل في شيراز قصبة فارس . وهذه الاخيرة أرجح الروايات ، لان اكثر الرواة عليها ولانهم يذكرون أن سيبويه حين احتضر كان أخوه معه . وهذا يعني انه عاد الى موطنه القديم ، موطن اسرته بعد خيبته في بغداد ، ولعله كان يريد الرحلة من هناك الى خراسان . كذلك يروون ان قبره موجود في شيراز كما يروي ابن دريد[116] ، وقد شهده أبو سعيد الطوال ووجد عليه أبياتا مكتوبة وهي لسليمان بن يزيد العدوي يقول فيها :

ذهب الأحبة بعد طول تزاور
ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا

---

(112) الورقة لابن الجراح ٢٦
(113) هذه عبارة الاعلم . نفح الطيب ٢٢٥/٥
(114) الفهرست ٥١
(115) وفيات الاعيان ٤٦٤/٣
(116) تاريخ بغداد ١٩٨/١٢ ومرآة الجنان لليافعي ٣٤٨/١

تركوك أوحش ما تكون بقفرة

لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا

قضي القضاء وصرت صاحب حفرة

عنك الاحبة أعرضوا وتصدعوا(١١٧)

سيبويه بين القدماء والمحدثين :

أستطيع القول جازما بأنه لم يرد اسم لعلم من أعلام النحاة في كتب النحو قديمها وحديثها قدر ما يتردد اسم سيبويه ، ولم يكتب عن احد من النحاة قدر ما كتب عن سيبويه وكتابه . وليس ذلك كثيرا على رجل يوصف كتابه بانه قرآن النحو(١١٨) .

بل ان بعض شيوخه وهو أبو زيد الانصاري كان معتزا بأن يرد ذكره في كتاب سيبويه ويكنى عنه بقوله : من أثق بعربيته(١١٩)

ويقول فيه بعض معاصريه : كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد(١٢٠) .

ويقول اللغوي في ترجمته : وأخذ النحو عن الخليل جماعة لم يكن فيهم ولا في غيرهم من الناس مثل سيبويه ، وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل(١٢١) .

---

(١١٧) الورقة لابن الجراح ٢٦ ومراتب النحويين ٦٥ وطبقات الزبيدي ٧٣ والفهرست ٥١ وانباه الرواة ٢/٣٦٠ .

(١١٨) مراتب النحويين ٦٥

(١١٩) المعارف ٥٤٤ ، واخبار النحويين ٣٧ وطبقات الزبيدي ٦٧

(١٢٠) طبقات الزبيدي ٦٧

(١٢١) مراتب النحويين ٦٥

ويصفه معاصره ابن سلام (ت ٢٣١هـ) بأنه (غاية الخلق في النحو وكتابه هو الامام فيه[١٢٢] • ويترجمه ابن خلكان فيقول : كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع فيه مثل كتابه[١٢٣] •

وينعته ابن كثير بأنه امام النحاة[١٢٤] • ويقول عنه الازهري صاحب التهذيب : كان سيبويه علامة حسن التصنيف •• وقد نظرت في كتابه فرأيت فيه علما جما ، ويحكى أنه تخرق في كم المازني بضع عشرة مرة[١٢٥] •

ويقول عنه الزجاج : اذا تأملت الامثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة[١٢٦] •

ويمجده الزمخشري شعرا فيقول :

ألا صلى الاله صلاة صدق
على عمرو بن عثمان بن قنبر
فأن كتابه لم يغنَ عنه
بنو قلم ولا أبناءُ منبَر

وليس ادل على منزلة سيبويه في النحو من انه اصبح ـ كما نعرف جميعا ـ رمزا على النحو والنحاة حتى بين الاوساط الشعبية ،

---

(١٢٢) تاريخ بغداد ١٩٦/١٢
(١٢٣) وفيات الاعيان ٤٦٣/٣
(١٢٤) البداية والنهاية ١٧٦/١٠
(١٢٥) تهذيب اللغة ١٩/١ ، وانظر بغية الوعاة ٣٦٦
(١٢٦) طبقات الزبيدي ٧٣

فهم حينما يتندرون على من يتفاصح في لغته أو كلامه يصفونه بأنه سيبويه أو خليفة سيبويه .

وتحتفظ أدراج المكتبات الجامعية ورفوفها بعشرات الرسائل العلمية المصنفة عن سيبويه وكتابه [١٢٧] ، فضلا عما كتب عنه من أبحاث ومقالات في المجلات العلمية أو في مصنفات مستقلة[١٢٨] .

على ان هذه المنزلة التي كانت لسيبويه في نفوس طلاب العربية لم ترق لبعض خصومه أو حاسديه ممن عاصروه أو جاءوا بعده .

فمعاصره أبو عبيدة (ت٢١٣هـ) لايكتم ضيقه بسيبويه وتبرمه بكتابه . فقد روى المازني قال : كنا عند أبي عبيدة يوما وعنده الرياشي يسأله عن ابيات في كتاب سيبويه وهو يجيبه ، ثم فطن فقال : أتسألني عن أبيات في كتاب الخوزي !؟ لا أجيبك[١٢٩] .

وشيخه يونس يبلغه أن سيبويه ألف كتابا في الف ورقة من علم الخليل ، فيغيضه ذلك ويستكثره على تلميذه الشاب فيقول ـ فيما يروي المبرد ـ أظن هذا الغلام يكذب على الخليل . ثم لا يلبث ان يشهد بصدقه بعد ان راجع ما رواه عنه فتبين أمانته فما نقل عنه[١٣٠]

وفي رواية أخرى انه قال : ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا

---

(١٢٧) سنشير الى بعض من كتبوا في ذلك عند الحديث عن كتاب سيبويه

(١٢٨) من هؤلاء الاستاذ علي النجدي ناصف ود . أحمد بدوى ومهدي المخزومي وحسن عون وغيرهم

(١٢٩) مراتب النحويين ٧٦

(١٣٠) اخبار النحويين ٣٧

كلـه !! جيئوني بكتابـه .[131] وهـي تحمل ضمنا اتهـاما لسيبويه بالتزيّد على الخليل .

أما خصمه الفراء فكان كثير الطعن عليه وعلى كتابه على الرغم مما يروى عنه أنه كان لايفارق هذا الكتاب وانه وجـد تحت وسادته بعد موته[132] . بل انه اتخذ لنفسه نسخة بخطه وهي التي أهداها الجاحظ فيما بعد الى الوزير ابن الزيات ، كما يجمع على ذلك أصحاب الطبقات والتراجم حين يترجمون لسيبويه أو الفرّاء .

قيل : كان الفرّاء يخالف على الكسائي في كثير من مذاهبه فأما على مذاهب سيبويه فانه يتعمد خلافه حتى ألقاب الاعراب وتسميـة الحروف[133] .

وروى أبو الطيب اللغوي قال : وكان (أي الفرّاء) زائد العصبية على سيبويه ، فأخبرنا محمد بن عبدالواحد قال : أخبرنا ثعلب عن سلمة قال : مات الفرّاء وتحت رأسه كتاب سيبويه ، قال أبو عمـر محمد بن عبدالواحد : فقام الحامض أبو موسى الى ثعلب فقال : انما كان يفارقه لانه كان يتتبع خطأه ولكنته[134] .

وكانت هذه اللكنة ـ وهي أثر من آثار فارسيته ـ موضع انتقاص لسيبويه من خصومه ، يضاف اليها حبسة في لسانه كانت تعوقه عن

---

(131) طبقات الزبيدي ٤٩
(132) مراتب النحويين ٨٧ وطبقات الزبيدي ٧٣ ومعجـم الادباء ٨٥/٦
(133) مراتب النحويين ٨٨
(134) نفس المصدر ٨٧

الانطلاق في المناظرة كما مر بنا في مناظرته مع الاصمعي ، وان لم تكن عائقا له عن التصدر في حلقته لتدريس طلابه واقرائهم .

وفي مجالس ثعلب(١٣٥) : قال أبو العباس : قال بعضهم لسيبويه: كيف تنشد :

يا صاح ياذا الضامرُ العنس والرحل ذي الأقتاب والحِلس

قال : فرفع .

قال : فقلت له فأيشٍ تصنع بقوله : والرحل ؟

قال : من ذا أفرُّ ، وصعد في الدرجة .

قال : الشعر معناه : يا صاحب العنس الضامر والرحل . فقال :

يا صاح ياذا الضامرِ العنس

تلاميــذه :

أخذ النحو عن سيبويه جماعة لم يذكر اصحاب الطبقات منهم غير اثنين عرفا بين النحويين بما تركا من آثار وما خلفا من مصنفات في النحو واللغة وغيرهما من علوم العربية .

أولهما أبو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش (ت ٢١٥هـ) مولى بني مُجاشع . وكان أبو الحسن كما يروون أسنَّ من سيبويه ، ولقي من لقيه سيبويه من العلماء وينقل الزبيدي أنه صحب الخليل قبل صحبته لسيبويه(١٣٦) ولكن ذلك مسألة مختلف فيها كما بينا في هامش سابق من هذا البحث .

---

(١٣٥) مجالس ثعلب ٣٣٣
(١٣٦) طبقات الزبيدي ٧٤

والطريق الى كتاب سيبويه الاخفش ، لان سيبويه كما يروون لم يقرأ كتابه على أحد ولم يقرأه عليه احد ، ولكنه كما يروي الاخفش نفسه كان يعرض عليه أبوابا منه فيقرأها قبل ان يظهر الكتاب عند الناس .

قال ثعلب : أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته الاخفش ، وكان ببغداد(١٣٧) .

ويقول عنه المازني : كان الاخفش أعلم الناس بالكلام واحذقهم بالجدل(١٣٨) .

ويقول عنه المبرد : وهو الذى تكلم على كتاب سيبويه وشرحه وبينه وهو معظم في النحو عند البصريين والكوفيين(١٣٩) .

وقال عنه الكسائي : لم يكن في القوم - يعني البصريين - أعلم من الاخفش ، نبههم على عوار الكتاب وتركهم .

وقد أخذ أهل الكوفة كتاب سيبويه عن الاخفش اذ قرأه عليه الكسائي ببغداد فوهبه سبعين دينارا كما يقولون(١٤١)

ويبدو لي أن العلاقة بين سيبويه والاخفش لم تكن علاقة تلمذة خالصة بل هي في مبدأ أمرها زمالة ، فقد كانا يأخذان كلاهما ولكن سيبويه برع قبل صاحبه ولهذا استكثر عليه الاخفش ذلك فذهب اليه يناظره ، ثم قال له بعد ذلك ملاطفا : انما ناظرتك لاستفيد لا لغيره ، فقال سيبويه

---

(١٣٧) نفس المصدر ٧٦
(١٣٨) مراتب النحويين ٦٨
(١٣٩) مراتب النحويين ٦٨
(١٤٠) نفس المرجع والصفحة
(١٤١) طبقات الزبيدي ٧٤ واخبار النحويين للسيرافي ٤٠

بلهجة المعتدّ بنفسه الواثق بها : أتراني أشك في هذا[١٤٢] .

وثاني تلميذي سيبويه أبو علي محمد بن المستنير قطرب . وانما سمي قطربا لان سيبويه كان يخرج فيراه بالاسحار على بابه فيقول : انما أنت قطرب ليل . والقطرب دويبه كثيرة السعي[١٤٣] .

وكان قطرب كما يروي أبو الطيب اللغوي قد أخذ عن يونس بن حبيب . وكان حافظا للغة كثير النوادر والغريب[١٤٤] . وكانت وفاته سنة ٢٠٦هـ

وللازهري صاحب التهذيب رأي في قطرب لاينبغي أن يتجاوز دون التوقف عنده ، فهو يقول : ومن نظراء الليث محمد بن المستنير المعروف بقطرب ، وكان متهما في رأيه وروايته عن العرب . أخبرني أبو الفضل المنذري أنه حضر أبا العباس أحمد بن يحيى فجرى في مجلسه ذكر قطرب فهجنه ولم يعبأ به .

قال : وكان أبو اسحاق الزجاج يهجن من مذاهبه في النحو أشياء نسبه الى الخطأ فيها[١٤٥] .

وذكر ابن الانباري من مصنفاته : معاني القرآن ، وكتاب غريب الحديث وكتاب الاصوات وكتاب الاشتقاق والنوادر والاضداد وخلق الانسان والقوافي والازمنة والمثلث والعلل في النحو ، ويقال انه أول من افرد العلل بتصنيف مستقل[١٤٦] .

---

(١٤٢) اخبار النحويين ٣٨
(١٤٣) اخبار النحويين للسيرافي ٣٨
(١٤٤) مراتب النحويين ٦٧
(١٤٥) تهذيب اللغة ١/٣٠
(١٤٦) نزهة الالباء ٦٢

(٢)

الكتاب

تساؤلات حول الكتاب ـ زمن تأليف الكتاب ـ تسميته ـ سند الكتاب : وصوله الينا ـ مادة الكتاب : موضوعاته ـ منهجه ـ الشواهد ـ المصطلحات ـ قيمة الكتاب ـ أقوال العلماء فيه ـ شروحه ـ طبعاته ونسخه الخطية • خاتمة •

كتاب سيبويه ـ في حقيقته ـ ثمرة ناضجة لكل الجهود والدراسات النحوية التي سبقت سيبويه وأدركها هو ممثلة في مجالس شيوخه ومحاضراتهم ، ثم ـ وهذا أمر غير يسير ـ ما أضاف اليها من تحليلات للاساليب العربية والتراكيب اللغوية ، واستقصاء للابنية الصرفية ، وما كان يعلل به الظواهر الاعرابية واللغوية ، معززا كل ذلك بما كان يأخذه سماعا عن الاعراب الذين كانوا يفدون الى البصرة فيلتقي بهم على مشارفها متلقيا عنهم مشافها اياهم ، متخذا مما كان يسمع منهم مادة للاستشهاد والتحليل .

والحق ان كتاب سيبويه ، في جملته ، يثير في ذهن الانسان تساؤلات كثيرة ، ربما يهتدي للاجابة عن بعضها الا أنّه بدون شك سيظل حائرا أمام الكثير منها ، لايعرف سبيلاً يهديه الى الاجابة عنها .

ولعل أول مايتبادر الى الذهن أن يتساءل المرء عن الزمن الذي ألف فيه سيبويه كتابه أو الفترة التاريخية التي اقترن بها الشروع بهذا العمل الضخم ، هل كان ذلك في حياة شيخه الخليل أو بعد مماته ؟

وكم من الوقت استغرق تأليف هذا الكتاب ؟

وهل تم ذلك قبل رحلته المعروفة الى بغداد أو بعدها ؟

واذا كان قد ألفه قبل ان يرحل الى بغداد ، كما تقول ظواهر الامور ، فلماذا تركه دون ان يضع له مقدمة أو خطبة كما اصطلح عليها القدماء ؟ ولماذا لم يجعل فيه خاتمة أو ما يشبه الخاتمة تكون ايذانا بانتهاء مباحث الكتاب واختتامها ؟

بل لِمَ لمْ يختر له تسمية تكون عنوانا عليه تمييزا له عن غيره من مؤلفات الاخرين ؟

ثم نسأل هل أملى سيبويه كتابه على أحد أو قرأه عليه أحد ؟

فأذا كان الجواب بالنفي كما يقول الرواة فمن اين عرف الناس أمره في حياة سيبويه حتى كانت المناظرة بينه وبين الاصمعي بسبب اختلافهما في تفسير بعض شواهده ؟ وماذا كان سيبويه يقرىء تلاميذه في حلقته التي كان يعقدها في المسجد ؟ ثم لِمَ لم يترك سيبويه اثرا آخر غير هذا الكتاب ما دامت معارفه اللغوية ـ كما يوحي بذلك كتابه ـ تتسع لكل فروع علم اللغة من نحو وصرف وأصوات ولهجات ونحوها(*) ؟

وكيف خطر لسيبويه أن يضع كتابا في نحو الف ورقة في عصر لم يكن الناس فيه مهيئين لمثل هذا الحجم في التأليف ؟ هل ترك سيبويه مباحث الكتاب منفرطة العقد ثم جمعها ونسقها من ورثه عنه من تلاميذه كما يستنتج ذلك بعض المعاصرين أستنادا الى مايبدو في بعض الابواب من الخلط ؟

هذه التساؤلات كلها وغيرها تتوارد على خاطر الانسان وهو يتفكر في أمر سيبويه وأمر كتابه الذي خلّفه فملأ الدنيا وشغل الناس مخلفا وراءه مكتبة ضخمة تزخر بشروحه وشروح شواهده وما كتب عليه من تعليقات واستدراكات وردود ومختصرات وتجريد لاحكامه .

(*) قال الاعلم : وأما كتابه الجاري بين الناس فلم يصح انه انشأه بعد كتاب آخر قبله ، على ان ذلك قد ذكر . نفح الطيب ٥/٢٢٦

متى ألف سيبويه كتابه ؟

يبدو لي أن هذا السؤال يحمل في طياته نوعا من التغاضي عن مدلول كلمة تأليف ، ويحمل أيضا تجاهلا لطبيعة كتاب سيبويه .

فأذا كنا نريد بكلمة تأليف تحرير مادة الكتاب وترتيب فصوله وأبوابه ، فلا ريب أن سيبويه عكف على ذلك بعد وفاة شيخه الخليل عام ١٦٠ او ١٧٠ هـ على اختلاف الروايات . يؤيد ذلك ما روى عن أبي اسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) عن القاضي اسماعيل بن اسحاق (ت ٢٨٢هـ) عن نصر بن علي (ت٢٥٠هـ) عن أبيه علي بن نصر (ت ١٨٧هـ) صاحب سيبويه وزميله في الاخذ عن الخليل ، أنه قال : قال لي سيبويه حين أراد أن يضع كتابه : تعال حتى نتعاون على احياء علم الخليل[١] .

ويؤيده أيضا تعقيب سيبويه بعبارة رحمه الله بعد ذكر الخليل في جملة مواضع من كتابه .

ويؤيده أيضا ما رواه ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) أنه قال : سمعت الاخفش يقول : كان سيبويه اذا وضع شيئا من كتابه عرضه علي وهو يرى أني أعلم منه ، وكان أعلم مني ، وأنا اليوم أعلم منه[٢] .

فالمعقول ان يعرض سيبويه على الأخفش ما يكتبه بعد وفاة الخليل لا على عهده ، لانه كان أعلم منهما كليهما .

ولابدّ أن تكون عملية التأليف هذه ـ في مفهومها الذى قررناه ـ قد استغرقت سنوات عديدة من حياة سيبويه ، بل لابد ان تكون ظلت شاغله وموضع اهتمامه حتى آخر حياته .

---

(١) مقدمة الكتاب بتحقيق عبدالسلام هارون ص ٨
(٢) المعارف ٥٤٦ وطبقات الزبيدي ٦٩

واذا كنا نريد بكلمة تأليف تهيئة المادة الاولية للكتاب في صورتها الاولى من غير تنسيق أو تبويب فمما لاشك فيه أن هذه العملية بدأها سيبويه على عهد شيخه الخليل منذ أن كان يستمليه فيدون ما يسمع منه من شروح واجابات على اسئلته واستيضاحاته •

ونحن نعرف أن صفحات الكتاب تفيض بعبارات مثل ، وسألت الخليل أو وسألته أو قال الخليل أو قال أو وهذا قول الخليل •

ولابد أن هذه المجالس التي كان التلميذ يدونها عن شيخه هي التي اصبحت فيما بعد المادة المعتمدة في كتاب سيبويه في مضمونها وفي الفاظها ، ولم يكن عمل سيبويه فيها يجاوز اعادة صياغتها مكملا ذلك بتحشيتها بما يساعد على استيفاء جميع جوانب الموضوع وأطرافه ، مستعينا على ذلك بما سمعه من شيوخه الاخرين أو من الاعراب الذين كان يلتقي بهم فيشافههم للاخذ عنهم[٣] •

يؤيد ذلك أن ذاكرة سيبويه لا يمكن أن تتسع ـ مهما كانت قدرته على الاستظهار خارقة ـ لكل ما دون في كتابه من نقول عن الخليل أو عن شيوخه الاخرين ، ولا يمكن أن تكون هذه الذاكرة مرجعه فيما ملأ به كتابه ـ الذى قارب الف ورقة ـ من قواعد نحوية وصرفية وأبنية للمفردات تجاوز المئات وفيها الغريب العويص ، وشواهد للمطرد من التعابير والحالات الاعرابية شعرا أو قراءات أو نثرا

---

(٣) ارجو أن لايفهم من هذا انني اريد الفاء دور سيبويه في الكتاب، فحسبه أنه استوعب في كتابه كل قواعد النحو والصرف وغيرهما من مباحث اللغة ، فلم يترك بعده زيادة لمستزيد ، ولا يتيسر ذلك لمن لا يملك عبقرية نادرة وذكاء حادا يمكنه من استيعاب جوانب هذا العلم .

مسموعا عن فصحاء الاعراب أو عمن روى عنهم حكاياتهم وأمثالهم والفاظهم .

فبهذا يتبين لنا أن بداية الكتاب كانت مع الخليل ، وأن ولادته اقترنت بحضور سيبويه مجالس الخليل يأخذ عنه مدوناً ما يسمع ومستملياً ما يريد أن يعرف .

فيكون الوقت الذي استغرقه تأليف الكتاب هو الفترة الممتدة من بداية تلمذة سيبويه للخليل حتى مغادرته البصرة متوجهاً الى بغداد على نية العود الى كتابه مرة أخرى مستكملا ما بقي فيه من نواقص يسيرة ، غير عالم أن منيته كانت ترصد له لتحول بينه وبين ما عقد عليه العزم .

وبهذا أيضاً نكون قد اتفقنا مع ما يرويه القدماء من أن سيبويه وضع كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل [٤] وانه عقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل[٥] وان عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل [٦] وان أصول الكتاب ومسائله للخليل [٧] .

وبه أيضاً نتجنب الذهول الذى أدرك يونس بن حبيب حين أخبر أن سيبويه ألف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل فصاح متعجباً منكراً : ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله ؟! جيئوني بكتابه .

---

(٤) طبقات الزبيدي ٤٩
(٥) مراتب النحويين ٦٥
(٦) اخبار النحويين البصريين ٣١
(٧) الفهرست لابن النديم ٥١

فلما نظر في كتابه ورأى ما حكى قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه كما صدق فيما حكى عني[8].

كذلك نتجنب المكابرة التي تورط فيها ثعلب حين كتب بخطه : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه أثنان واربعون انساناً منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل[9] . فكأنه لا يريد أن يقر بأن مادة هذا الكتاب ومحتوياته مما يمكن أن يتوفر على وضعها وجمعها وترتيبها وصياغتها انسان واحد .

ومن هذا المنطلق أيضا نرفض الاتهام الساذج والدعوى الباطلة الذين يطلقهما بعض المعاصرين حين يقرر ـ بعيداً عن الاحساس بالمسؤولية التاريخية ـ « أن هذا العمل الضخم الكامل الذى لم يسبقه سواه لا يمكن أن يكون من نتاج البيئة العربية ... وأن سيبويه قد

---

(٨) طبقات الزبيدي ٤٩ .

(٩) الفهرست لابن النديم ٥١ . هذا اذا أخذنا عبارة ثعلب على ظاهرها . فأذا اردنا أن نحسن الظن بقصده فيمكن تفسير عبارته هذه على انه اراد أن كثيرين اشتغلوا في كتاب سيبويه منهم الأخفش الاوسط راوي الكتاب عن سيبويه ، وكانت له تعليقات عليه الحقت بمتنه كما يقول ابن هشام في احدى رسائله التي أدرجها السيوطي في الأشباه والنظائر ٢٦/٤ ومنهم أبو عمر الجرمي الذي نسب عامة شواهد الكتاب الى قائليها واثبت ذلك في الكتاب ومنهم أيضا شيوخه الذين سمع منهم وروى عنهم مثل عيسى بن عمر ويونس بن حبيب والخليل بن أحمد وابو زيد الانصاري وهارون وغيرهم كما روى عن آخرين لم يأخذ عنهم مباشرة مثل عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وأبي عمر وبن العلاء وغيرهم . فيكون الرقم الذي ذكره ثعلب ليس مقصوداً على وجه الدقة وانما على التقريب .

تعلّم أصول هذا العلم عن غير العرب أو بالتحديد من الهنود الذين كانوا يعيشون بالبصرة حيث عاش سيبويه نفسه »[١٠]

---

(١٠) د. عبدالرحمن أيوب : التفكير اللغوي عند العرب (مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ج ٢٤ ص ١٢١ كانون الثاني ١٩٦٩) ولا أدري لماذا يريد الكاتب أن يتجاهل عمداً أو سهواً ماكتبه النحاة قبل سيبويه من رسائل أو مصنفات في النحو ، وهل يكون فقدان هذه المؤلفات أو ضياعها مبرراً كافياً لانكارها مع أن أخبارها قد وصلت الينا . وهل يفترض فيمن هاجر الى البصرة من الهنود الذين دخلوها للتجارة أو التكسب بالحرف أن يكونوا من النحاة أو علماء اللغة فيكون سيبويه قد تلقى عنهم مبادىء النحو الهندي وأصوله ثم احتذى حذوها فألف على منوالها كتابه في النحو العربي . وأين ذهبت جهود النحاة قبل سيبويه وماذا كانوا يفعلون في هذا السبيل . هل كان الخليل بن أحمد أو عيسى بن عمر أو عبدالله بن أبي اسحاق يجهلون ظواهر الرفع والنصب والخفض والجزم في الاسماء والافعال ، وهل كانوا يجهلون تفسير العبارات العربية وتحليلها وأبنية المفردات العربية واوزانها مما هو مدار الحديث والبحث في كتاب سيبويه ؟ وكيف تأتي للخليل بن أحمد اذا كان يجهل أصول البناء في المفردات ومايترتب عليها من مباحث صرفية أن يرسم منهجه المعروف في معجم العين الذي اكمله وحشّاه من بعده تلميذه الليث كما هو مشهور ومتواتر لدى دارسي اللغة ؟ واذا كانت عبقرية سيبويه مضافاً اليها مثابرته ودأبه الشديدان قد هدته الى استقصاء ما تبقى من الظواهر اللغوية في الجمل والمفردات واستقرائها من خلال نصوص القرآن والشعر وغيرهما مما لم يكن قد سمعه عن شيوخه فهل يكون معناه انه تعلم أصوله عن غير العرب ؟ اننا لن نضيف الى هذا اكثر مما علق به الدكتور أحمد مختار عمر على هذه الدعوى حين قال : ان مايظنه بعضهم من وجود تأثير هندي على النحو العربي في نشأته وبخاصة في مناهج بحثه ما هو الا حكم متسرع لم يبن =

وكأن البيئة العربية كتب عليها العقم والجمود فلن تثمر شيئاً من العلم والفكر الا بوحي من المؤثرات الاجنبية حتى بعد أن بدأ عهد الاستقرار الاجتماعي والحضاري بتمصير المدن وازدهارها • ولا أدري لم كانت القدرة على الخلق والابتكار وقفاً على الهنود أو الاغريق كما يذهب بعض المولعين بالانكار على العرب وجحودهم • وما الذي يقوله هؤلاء الافاضل عن الشعر الجاهلي الذى بلغ درجة عالية من النضج الفني ، هل كان بوحي من شعراء اليونان أو الهنود مثلا ما دامت البيئة العربية عاجزة عن خلق الفكر والفن ؟

واذا كانت الفنون لا تدخل في احتمالات هؤلاء السادة فكيف يفسرون العبقريات العسكرية التي أنجبتها هذه الأمة وتجسدت في قيادة الجيوش العربية المسلمة وما تمّ على أيديها من اجتياح الامبراطوريات والدول المجاورة في سرعة مذهلة وبتدبير قادة أفذاذ يعرفهم التاريخ جيداً ويحفظ لهم منزلتهم •

واذا كان هذا الباحث يتعلل بأن الفترة الزمنية التي يحتاجها نمو الثقافة المحلية حتى تنتج مثل هذا تكون أطول بكثير من الفترة التي تفصل بين أبي عمرو بن العلاء وسيبويه فاننا نقول ـ وهو يعرف ذلك أيضاً ـ أن النحو العربي لم يبدأ بأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) بل أن أبا عمرو هذا من رجال الطبقة الثانية التي أدركت النحو بعد

= على أساس من الواقع اللغوي لكلا الشعبين موضوع الدراسة . أ هـ . وانظر ردّ الدكتور عمر على دعوى الدكتور أيوب التي كررها في موضع آخر ، في ص ١٥٤ وما بعدها من كتابه : البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب ، بيروت ١٩٧٢ .

أن أوشك على النضج والاستواء على يد أمثال عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر الثقفي وغيرهم ممن أخذوا عن نحاة الطبقة الأولى من تلاميذ أبي الأسود (ت ٦٩ هـ) أول من ضبط المصحف بالشكل . فالفترة الفاصلة بين وفاة أبي الأسود ووفاة سيبويه عام ١٨٠ هـ فترة تزيد على قرن من الزمان وهي كافية لان تكتشف فيها قوانين الاعراب وقواعد اللغة من خلال نصوص القرآن والشعر وغيرهما .

تسمية الكتاب

من المعروف أن سيبويه لم يطلق على كتابه الذى اشتغل في تأليفه سنين عديدة اسماً كما جرت العادة بذلك بين أصحاب المصنفات على عهد سيبويه وقبله . ويعلل الاستاذ النجدي ذلك قائلا : يخيل اليّ أن سيبويه كان على نية العود الى الكتاب ، لان لديه منه بقية ولا يزال في نفسه منه شيء ، فأرجأ تسميته لم يشأ أن يضعها له حتى يفرغ منه ويبلغ به غاية ما يريد (١١) .

والحق اننا نتفق مع ما ذهب اليه الاستاذ في تعليله هذا ، لان سيبويه كما هو واضح في كتابه لم يضع له مقدمة أو خطبة كما يقول القدماء يبين فيها غرضه من تأليف الكتاب ـ كما جرت عادة المصنفين بذلك ـ أو الدوافع التي اقتضته أن يؤلفه . كما أنه لم يختمه بخاتمة تشعر بفراغه منه وانتهائه من مباحثه حتى ولو كانت سطراً أو عبارة ، كما نجد ذلك عند عامة المؤلفين القدامى .

---

(١١) سيبويه امام النحاة : ١٢٣

فالكتاب يبدأ بقول سيبويه : هذا باب علم ما الكلم من العربية • وينتهي بقوله : ومثل هذا قول بعضهم عَلْماء بنو فلان ، فحذف اللام يريد على الماء بنو فلان وهي عربية •

ويؤيده أيضاً قول السيرافي : ان كتاب سيبويه لا نعلم أحداً قرأه على سيبويه ولا قرأه عليه سيبويه ، ولكنه لما مات سيبويه قريء الكتاب على أبي الحسن الأخفش (١٢) •

ولما لم يضع سيبويه لمصنفه اسماً لم يشأ الذين ورثوا كتابه أن يطلقوا عليه تسمية بل تركوه كما خلّفه صاحبه • فاذا أرادوا أن يتحدثوا عنه قالوا : كتاب سيبويه • ولما صار هذا المصنف مادة للدرس النحوي على مدى سنين طويلة اعتاد الناس أن يختصروا تسميته فيسموه « الكتاب » فقط كما هي عادة الناس دائماً في الميل الى الاختصار فيقولون « المغني » وهم يريدون « مغني اللبيب عن كتب الاعاريب » ويقولون « التوضيح » وهم يريدون « أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك » ونحوها من المصنفات في مختلف العلوم •

وكانت هذه التسمية المختصرة هي التي شاعت ـ بعد تداول تكرار الكتاب ـ على ألسنة الناس في البصرة ، فكان يقال فيها قرأ فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سيبويه وقرأ نصف الكتاب ولا يشك أنه كتاب سيبويه(١٣) فتكون التسمية المختصرة لا تحمل دلالة تزيد على دلالة التسمية الاولى •

---

(١٢) أخبار النحويين البصريين ٣٩

(١٣) نفس المصدر ٣٩

فاذا كانت شهرة كتاب سيبويه أغنت الناس عن أن يذكروه مضافاً الى صاحبه بعد تطاول العهد به دراسة واقراءً فاكتفوا بتسميته « الكتاب » فلا أظن أن ذلك يبرر لنا الاستنتاج بأن العلماء قد سمّوه عن صاحبه فدعوه بالكتاب وأمسكوا ، لا يصفونه بصفة ولا يخصونه باضافة ... كأن كتاب سيبويه في النحو كان هو وحده الحقيق في رأيهم أن يسمى الكتاب ، أما غيره فلا ينبغي أن يسمى به الاّ على ضرب من التجوز أو المجاملة كما يقول الاستاذ النجدي (١٤)

كما أن ذلك لا يبيح لنا الاستنتاج بأن « هذا الاسم ظل خاصاً به دلالة على روعة تأليفه واحكامه كما يذهب الى ذلك استاذنا الدكتور شوقي ضيف (١٥) ، ذلك لان وضع الاسماء والعناوين على المصنفات أياً كانت لا يمكن أن يغض من قيمتها الفنية أو العلمية ، كما أن اهمالها بدون تسمية كما حدث لكتاب سيبويه لا يمكن أن يكون عاملا في رفع هذه القيمة مطلقاً » .

ولم يشر الدكتور ضيف الى مستنده حين قرر أن الأخفش الاوسط الذي حمل كتاب سيبويه هو الذي أذاعه في الناس باسم « الكتاب » علماً اختص به هذا المصنف وحده دون بقية المصنفات في عصره .

ألا يمكن أن يكون غير الاخفش هو أول من اختصر هذه التسمية فاكتفى منها بكلمة « الكتاب » وهو يعني كتاب سيبويه .

---

(١٤) سيبويه امام النحاة : ١٢٤

(١٥) المدارس النحوية : ٥٩

الواقع اننا لا نستطيع أن نجزم بشيء من ذلك ما دمنا لا نملك السند التاريخي على هذه الدعوى ، والاولى أن تكون هذه القضية مما تعارف عليه الناس عفواً لا قصداً ، وانهم كانوا يقولونها دون أن يقصدوا الى شيء من هذا الذى ظنه الباحثان الجليلان ومن تابعهما على رأيهما .

وعلى هذا فنحن نرفض أيضاً الاحتمال الذي استظهره بعض الباحثين حين قال : ولعل سيبويه ترك « الكتاب » علماً على كتابه ، وهو يريد به معنى الجامع اذ أن كتب الشيء بمعنى جمعه ، وقد جمع سيبويه النحو في كتابه كما جمعه من قبله شيخه عيسى بن عمر في الجامع (١٦) .

وما دمنا قد قررنا ـ استناداً الى ما هو واضح من أمر الكتاب واتفاقاً مع كثير من القدماء والمعاصرين ـ أن سيبويه ترك كتابه دون أن يضع له مقدمة أو خطبة كما يسميها القدماء فلا بد لنا أن نناقش ما اعترض به الباحث المتقدم على هذا التقرير حيث زعم أن « الكتاب يبدأ بمقدمة ولكنها ليست كما يطلب الباحثون اليوم « مقدمة تشرح الاهداف » وانما هي من نوع المقدمات التي تتناول الحديث عن بعض مبادىء العلم الذي تقدم له وشرح بعض مصطلحات هذا العلم تمهيداً لاستعمال هذه المصطلحات في متن الكتاب . وهذا ما فعله سيبويه في الصفحات الاولى من كتابه ، وما أظن أن أحداً يقول ان حديث سيبويه في أول الكتاب حديث نحوي صميم أكثر مما هو تمهيد للنحو

---

(١٦) د . مازن المبارك : الرماني النحوي ١١٠

وتناول لمسائل عامة منه وتعريف ببعض مصطلحاته [١٧] .

وهذا الذي عده المبارك مقدمة هو مجموعة مباحث يتناول سيبويه فيها « الحديث عن أقسام الكلم وحركات الاعراب والبناء أو مجاري أواخر الكلم وعن المسند والمسند اليه وعما يقع بين الكلمات من اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى ، أو اتفاق في اللفظ واختلاف في المعنى أو اختلاف فيهما جميعاً ، وعما يعتري اللفظ من أسباب الذكر والحذف وما يلحق بالمعنى من حسن أو قبح واستقامة أو احالة . ويختم ذلك بالحديث عما يحتمله الشعر من الضرورات »

وهو في مجموعه يشمل سبعة أبواب من أبواب الكتاب . فهل يعقل أن تسمى كل هذه السبعة الابواب مقدمة للكتاب ، أليست هي تمهيداً ومدخلا للكتاب أو لموضوعاته العامة في الاسماء والافعال والحروف والابنية الصرفية والاصوات وغيرها من مباحث الكتاب ؟

وهل يكون كل هذا التمهيد مقدمة ؟

لم ينكر أحد من الباحثين أن يكون سيبويه قد مهد لمباحث الكتاب التفصيلية بمدخل في المبادىء العامة للقضايا التي يدور حولها كتابه ، ولكنهم أنكروا أن تكون للكتاب مقدمة كتبها سيبويه أو غيره. وفرق بين المقدمة والتمهيد كما نعلم جميعاً .

وهل يمكن أن يبدأ كتاب سيبويه بقوله : هذا باب علم ما الكلم من العربية ثم نقول نحن بعد ذلك ان سيبويه بدأ الكتاب بمقدمة

---

(١٧) المصدر السابق ص ١١١

ولكنها ليست كما يطلب الباحثون اليوم ؟! ألا يكون ذلك اغراباً في الدعوى لا مبرر له ؟

وصول الكتاب الينا (سنده) :

يتفق عامة مترجمي سيبويه ومؤرخي كتابه أن هذا الكتاب لم يصل الينا الا من طريق واحد وهو طريق الأخفش[18] • فجميع روايات الكتاب تنتهي الى الأخفش • يتجلى ذلك في جميع نسخ الكتاب الخطية • ويتجلى في قول السيرافي ، والطريق الى كتاب سيبويه الأخفش ، وذلك أن كتاب سيبويه لا نعلم أحداً قرأه على سيبويه ولا قرأه عليه سيبويه • ولكنه لما مات سيبويه قرىء الكتاب على أبي الحسن الأخفش • وكان ممن قرأه أبو عمر الجرمي صالح بن اسحاق وأبو عثمان المازني بكر بن محمد وغيرهما [19] •

ويروون أيضاً عن الأخفش قوله : جاءنا الكسائي الى البصرة فسألني أن أقرأ عليه أو أقرئه كتاب سيبويه ، ففعلت ، فوجه اليّ خمسين ديناراً[19] ويقولون انه قرأه عليه سراً •

وفي مسألة ظهور الكتاب بين الناس وشيوعه لديهم قصة يتداولها أصحاب التراجم مفادها أن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لا نظير له في حسنه وصحته وانه جامع لأصول النحو وفروعه استحسنه كل الاستحسان ، فيقال ان أبا عمر الجرمي وأبا عثمان المازني ـ وكانا رفيقين ـ توهما أن أبا الحسن الأخفش قد همّ أن يدّعي الكتاب

---

(18) اخبار النحويين البصريين ٣٩ ونزهة الالباء ٩٤
(19) اخبار النحويين ٤٠ ، ومراتب النحويين ٧٤ وطبقات الزبيدي ٧٤ ونزهة الالباء ٩٥

لنفسه ، فقال أحدهما للآخر كيف السبيل الى اظهار الكتاب ومنع الأخفش من ادعائه ؟ فقال له أن نقرأه عليه ، فاذا قرأناه عليه أظهرناه وأشعنا أنه لسيبويه ، فلا يمكنه أن يدعيه . وكان أبو عمر الجرمي موسراً وابو عثمان المازني معسراً ، فأرغب أبو عمر الجرمي أبا الحسن الأخفش وبذل له شيئاً من المال على أن يُقرئه وأبا عثمان المازني الكتاب . فأجاب الى ذلك وشرعا في القراءة عليه وأخذ الكتاب عنه ، وأظهرا أنه لسيبويه وأشاعا ذلك فلم يمكنا أبا الحسن أن يدعى الكتاب فكانا السبب في اظهار أنه لسيبويه[٢٠] ، ولم يسند كتاب سيبويه اليه الا بطريق الأخفش ، فان كل الطرق مستند فيها اليه[٢١].

ولكننا نريد أن نتساءل كيف تسنى للأخفش أن يقتني كتاب سيبويه ويمتلكه وحده دون أن يشاكه في هذا واحد من معاصريه ممن تلمذوا على سيبويه مثل قطرب وغيره ، أو ممن قرأ عليهم سيبويه مثل يونس وأبي زيد وهم عمروا بعد سيبويه سنوات .

ويحق لنا أن نتساءل ماذا كان سيبويه يقرىء طلابه في حلقته التي كان يعقدها لهم . ألم يكن يقرأ عليهم فصولا أو أبواباً من مباحث الكتاب الذى كان عاكفاً عليه سنين طويلة .

ان أمر الكتاب وعكوف سيبويه على تأليفه لم يكن سراً على معاصريه ، بل ان بعض مباحثه كانت تصل الى أهل العلم من معاصريه

---

(٢٠) الواضح أن هذا كان ظناً من المازني والجرمي ، ولم يكن في نية الاخفش أن يدعي الكتاب لنفسه لانه لو اراد ذلك لكتم خبره وامتنع عن اقرائهما اياه .

(٢١) نزهة الالباء ٩٤

وانها كانت موضوعاً للجدل في مجالس القوم ونواديهم ، تشهد بذلك مناظرة سيبويه للأصمعي حين علم أنه يخالفه في تفسير بعض شواهد الكتاب ، ويذهب فيها مذهباً يخالف ما ذهب اليه سيبويه في الكتاب[٢٢].

اننا نقرأ عن الرياشي قوله : سمعت الأخفش يقول : كان سيبويه اذا وضع شيئاً من كتابه عرضه عليّ وهو يرى أني أعلم منه ، وكان أعلم مني ، وأنا اليوم أعلم منه[٢٣] .

وهذا أمر غير مستبعد ، ذلك لان الأخفش كان زميلا لسيبويه وكان يأخذ عمّن يأخذ عنهم سيبويه مثل يونس وابي زيد ، كما أنه أسنّ منه ، فلا غرابة أن يستأنس سيبويه برأي الأخفش في مسائل الكتاب .

بل انني أرى آثار مناقشات الأخفش لسيبويه حول عدد من المسائل النحوية والصرفية ماثلة في الكتاب .

من ذلك قول سيبويه في باب الاضافة (النسب) الى بنات الحرفين : فمن ذلك قولهم في دمٍ دميّ وفي يدٍ يدِيّ . وان شئت قلت دمَوي ويدَوي كما قالت العرب في غدٍ غدَوي كل ذلك عربيّ . فان قال: فهلاّ قالوا : غدْوي ، وانما يد وغد كل منهما فَعْلٌ ، يستدلّ على ذلك بقول ناس من العرب : آتيك غدْواً ، يريدون غداً . قال الشاعر :

وما الناسُ الا كالديار وأهلها بها يوم حلّوها وغدواً بلاقع[٢٤]

---

(٢٢) معجم الادباء ٨٦/٦ .
(٢٣) المعارف ٥٤٦ ، مراتب النحويين ٦٩ ، طبقات الزبيدي ٦٧
(٢٤) الكتاب ٧٩/٢

والذى نعرفه من نقل النحاة أن الذى قال غَدْوي بأسكان الدال في النسب الى غد ويَدْيي بأسكان الدال في النسب الى يد هو الاخفش • فمذهبه أنك اذا رددت المحذوف في يد وغد ترد العين الى أصلها من السكون فتقول في يدْ : يدْي • واستدل على مذهبه بأنهم لما ردوا المحذوف في مثل غد ردّوها الى أصلها من السكون فقالوا : غدو • واستدل أيضا بالبيت الذى أثبته سيبويه فلعل سيبويه سمعه منه(٢٥) •

ولكننا لانستطيع القول ان قراءة الاخفش لما كان يعرضه عليه سيبويه من أبواب الكتاب وفصوله كانت الوسيلة لان يقتني الاخفش نسخة له من الكتاب ، ذلك لان الكتاب كما نعلم في الف ورقة ، وليس من المعقول أن يكون سيبويه عرضه كله على الاخفش وان الاخفش كان يستنسخ منه ما يعرضه عليه فكون له نسخة خاصة من الكتاب •

ذلك لان النسخة التي بأيدينا من الكتاب نسخة كاملة وأنها مبوبةومرتبة بحيث لاتظهر عليها آثار اضطراب أو خلل ذي بال ، كما أنها خالية من السقط أو الخرم ، وهي وان كانت خالية من مقدمة أو خاتمة فأن ذلك لايدفعنا الى القول انها ليست في أصلها نسخةالمصنّف أو منقولة عنها • ولكن كيف تهيأ للاخفش أن تقع له نسخة من الكتاب مع أن سيبويه لم يقرأه على الناس ولم يقرأه أحد عليه ؟

انا نواجه في ذلك خبرا منقولا عن الاخفش يعقب فيه على حكاية المناظرة المعروفة بين سيبويه والكسائي فيقول : فلما دخل (سيبويه) الى

---

(٢٥) انظر رأي الاخفش واستدلاله بالبيت في المقتضب ١٥٢/٣ ، المنصف ٦٣/١ شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٢٥١/٢ (رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة) لكاتب السطور •

شاطيء البصرة وجه الي فجئته فعرفني خبره مع البغدادي وودعني ومضى الى الاهواز فأقام سيبويه مديدة في الاهواز ثم مات من ذرب أصابه ، وما قتله الا الغم لما جرى عليه [٢٦] .

ألا يحق لنا أن نتساءل لماذا اختص سيبويه الاخفش باهتمامه حتى بعث اليه ليجيئه الى شاطيء البصرة ـ حين لم يشأ ان يدخلها استحياء مما وقع له مع الكسائي ـ فيخبره بما جرى له مع الكوفيين ثم يودعه ويمضي من هناك الى الاهواز ؟

الا يمكن ان يكون سيبويه قد خلف عند الاخفش نسخة الكتاب على أمل العودة الى البصرة بعد أن يكون أمر المناظرة قد نسيه الناس أو نسيه سيبويه ؟ وهذا سؤال تقتضيه الظروف والملابسات التي تحيط بقضية وصول الكتاب الينا وما يدور حولها من تساؤل . اننا لم نشأ الاجابة عليه لانه ليس لدينا قرينةواضحة مقنعة تبيح لنا اختيار الجواب سلبا أو ايجابا .

مصادر كتاب سيبويه :

الحديث عن المصادر التي اعتمدها سيبويه في تأليف كتابه أمر يقتضينا العودة الى ما ذكرناه في تراجم شيوخه الذين أخذ عنهم فأكثر الاخذ ولازمهم فطالت ملازمته لهم وبخاصة شيخه الخليل .

فالمعروف أن سيبويه اكثر من النقل عن الخليل ، وهو في نقله عن الخليل يتردد بين ذكر اسمه صراحة ـ ونشهد ذلك في حوالي ٣٢٢ موضعا ـ أو الاشارة اليه بقوله : وسألته أو وزعم أو قال أو

---

(٢٦) طبقات الزبيدي ٧١

يقول[٢٧] ، ويبلغ مجموع هذا وذاك حوالي ٥٢٢ موضعا[٢٨] .

ويرى الدكتور المخزومي ان للخليل آراء وأقوال كثيرة بل اكثر مما نسبه سيبويه اليه وهي مبثوثة في الكتاب وان سيبويه لم يذكر للخليل رأيا الا لبيان ما خالف الخليل فيه غيره . فهو لا يستثنى من الكتاب شيئا الا ما نقله سيبويه عن يونس وعيسى وعبدالله بن أبي اسحاق وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم ، وما كان لسيبويه من آراء خاصة عارض بها الخليل أو رجح بها مذهبا على مذهب[٢٩] .

وأثر الخليل في كتاب سيبويه لا يتضح في عرض الموضوعات أو شرح الابواب وانما يتضح في تعليل الظواهر الاعرابية وتحليل التعابير والاساليب الكلامية مستنبطا تعبيرات جديدة قياسا على تعابير مسموعة عن العرب [٣٠] .

على أننا نجد سيبويه ينقل في الكتاب مجلسا من مجالس الخليل مع طلابه وما جرى فيه من محاورة بينه وبينهم .

ففي «باب ارادة اللفظ بالحرف الواحد» يقول سيبويه بعد العنوان مباشرة : قال الخليل يوما ، وسأل أصحابه ، : كيف تقولون اذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والكاف التي في مالك والباء التي في ضرب ؟

---

(٢٧) يقول السيرافي : وكل ماقال سيبويه : وسألته او قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل . أخبار النحويين البصريين ٣١ .

(٢٨) الخليل بن أحمد الفراهيدي للدكتور المخزومي ٢٢٢ وسيبويه امام النحاة ٨٩

(٢٩) المصدر السابق ٢٢٠

(٣٠) نفس المصدر ٢٢٣

فقيل له : نقول : باء كاف •

فقال : انما جئتم بالاسم ولم تلفظوا • وقال : أقول : كَهْ وبَهْ •

فقلنا : لم ألحقت الهاء ؟

فقال : رأيتهم قالوا عِهْ ، فألحقوا هاء حتى صيروها يستطاع الكلام بها ، لانه لا يلفظ بحرف • فأن وصلت قلت كَ وبَ فاعلم يافتى ، كما قالوا : ع يا فتى • فهذه طريقة كل حرف كان متحركا • وقد يجوز أن يكون الالف هنا بمنزلة الهاء لقربها منها وشبهها بها فتقول با وكا كما تقول أنا ••••• ثم قال : كيف تلفظون بالحرف الساكن نحو «ياء» غلامي وباء اضرب ودال قد ؟

فأجابوا بنحو مما أجابوا في المرة الاولى •

فقال : أقول اب واي وإد ، فأُلحق ألفا موصولة • قال : كذاك أراهم صنعوا بالساكن ، ألاتراهم قالوا : ابن واسم ، حيث أسكنوا الباء والسين ، وأنت لا تستطيع أن تكلم بساكن في أول اسم كما لا تصل الى اللفظ بهذه السواكن فالحقت ألفا حتى وصلت الى اللفظ بها ••••••»[31]

فهذا الباب الذى ينقل فيه سيبويه عن الخليل محاورته مع طلابه يتضح فيه عرض للموضوع وشرح لمادة الباب ، وهو خلاف ما اعتدنا أن نجده له حين يذكر اسمه تصريحا أو تلميحا ، فهناك غالبا مانراه مسؤولا وقد نجده أحيانا سائلا • الا انه لايشغل مساحة واسعة من الباب على نحو ما وجدناه في هذا الباب الذى نقلنا شيئا منه •

---

(31) الكتاب ٢/٦١

ويأتي يونس بن حبيب بعد الخليل في كثرة ما نقل عنه سيبويه وأخذ من أقواله وآرائه وما سمع عن العرب من الاساليب اللغوية والابنية الصرفية .

فهو ينقل عنه في حوالي مئتي موضع ، وربما يكون يونس واسطة للنقل عن أئمة آخرين مثل أبي عمرو بن العلاء[٣٢] .

وفي أبواب التصغير ينقل سيبويه عن يونس بابين كاملين من أبوابه ويقول بعد « باب تصغير ما كان على ثلاثة أحرف ولحقه ألف التأنيث بعد ألف » : وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس[٣٣] .

كما ينقل عن أبي الخطاب الأخفش في سبعة وأربعين موضعاً ، ويغلب على ما ينقله عنه طابع اللغة ولهجات العرب[٣٤] .

وينقل عن أبي عمرو بن العلاء في أربعة وأربعين موضعاً وعامتها في القراءات وهو ينقل عنه مباشرة واحيانا بواسطة آخرين مثل يونس[٣٥] .

كما ينقل عن أبي زيد الانصاري في تسعة مواضع ، وهو لم يذكر اسمه صراحة في الكتاب مطلقا ، ولكن ابن قتيبة ينقل عن أبي حاتم أنَّ أبا زيد قال له : كان سيبويه غلاماً يأتي مجلسي وله ذؤابتان

---

(٣٢) الكتاب ٢/٦٣

(٣٣) الكتاب ٢/١٠٩

(٣٤) الكتاب ١/٦٣ ، ١٠٣ ، ١٢٦ ، ٢٧٥ ، ٢/١٢ ، ١٣٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ وغيرها .

(٣٥) الكتاب ١/٢٩٣ ، ٢/١٥

قال : واذا سمعته يقول : أخبرني من أثق بعربيته فأنما يريدني[٣٦]

وسيبويه يقول في بعض المواضع : وحدثني من أثق به أنه سمع عربيا يقول[٣٧] .... وحدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول[٣٨] ... وحدثنا بذلك أبو الخطاب عمن نثق به من العرب[٣٩] ... وهذه حجج سمعت من العرب وممن يوثق به يزعم أنه سمعها من العرب[٤٠] .

ولكننا نجد مثل هذه العبارة عند غير سيبويه من النحاة،فالاخفش مثلا في كتابه «القوافي» يردد مثل هذه العبارة : وأخبرني من أثق به أنه سمع ... أخبرنا يونس وغيره ممن يوثق به .. وأخبرني من أثق به عن العرب[٤١] .

فهل يعني الاخفش بذلك أبا زيد أيضا وهو معاصر له كما نعلم، وكان وفاتهما في وقت متقارب . لانستطيع أن نرجح ذلك ولا أن نرفضه ، وان كان الذى يغلب على الظن انه يريد به أبا زيد احيانا وغير أبي زيد أحيانا أخرى ، لان الذين يوثق بعربيتهم أو بنقلهم ليسوا قلة في ذلك العصر ، عصر الاهتمام بتنقية اللغة وتجنب اللحن .

وكذلك الامر مع سيبويه ، فهو حين ينقل عن أبي زيد في بعض

---

(٣٦) المعارف ٥٤٤ ، وانظر مراتب النحويين ٤٢ والقفطي ٣/٣٥٠ .
(٣٧) الكتاب ٢/٢٨٣
(٣٨) الكتاب ١/٢٨٣
(٣٩) الكتاب ١/٢٧٥
(٤٠) الكتاب ١/١٢٩
(٤١) القوافي للاخفش : ٤ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ وغيرها .

المواضع يكني عن بمن يوثق به ولكن ذلك لا يعني أن كل ما ورد من هذا القبيل فالمعنى به أبا زيد فقد يريد سيبويه بعبارة من يوثق بعربيته الفصحاء من الاعراب ممن سمع عنهم . والواقع اننا نظل حائرين امام ظاهرة التكنية عن أبي زيد بمن يوثق به وعدم التصريح باسمه في الكتاب مطلقا .

على أن سيبويه ينقل عن غير هؤلاء الشيوخ مادة لغوية يعزوها الى من أخذ عنهم من الاعراب ممن كانوا يفدون الى البصرة في سوقها المعروفة بالمربد وهو يحتج بكلامهم أو يستشهد به في مواضع كثيرة من كتابه . وفي مناظرته مع الكسائي رفض نصب الضمير بعد اذا الفجائية قائلا : أما عرب بلدنا فلا تعرف الا هو هي(٤٢) . وهو يريد بهم عرب البصرة الذين يفدون اليها ممن يحتج بكلامهم ويؤخذ عنهم .

وهو قد يقول أحيانا : وسمعناه من العرب ينشدونه(٤٣) ... وانا سمعنا من يوثق بعربيته يقول : خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها(٤٤) .

والواقع اننا لم نقرأ في تراجم سيبويه ما يشير الى انه رحل الى البادية ولقي فيها القبائل والاعراب كما فعل شيخه الخليل وكما فعل يونس وأبو عمرو بن العلاء والاصمعي والكسائي والفراء .

ولكن الدكتور شوقي ضيف يرى ان مايرد في كتابه من نحو «سمعنا من العرب ، وقال قوم من العرب ترضى عربيتهم ، وسمعنا

---

(٤٢) طبقات الزبيدي ٧١
(٤٣) الكتاب ١/٤٤
(٤٤) الكتاب ١/٧٧

العرب تنشد هذا الشعر» ، يدل دلالة قاطعة على أنه رحل الى بوادي نجد والحجاز مثل أستاذه الخليل[٤٥] .

والحق انا لا نستطيع الاطمئنان الى هذا الاستنتاج ، فلو كان سيبويه رحل الى البادية لمشافهة الاعراب في ديارهم والاخذ عنهم لنقل ذلك عنه كما نقل عن الخليل ويونس والكسائي والفراء ، ولحدد لنا سيبويه بعض القبائل التي سمع عنها ونزل بينها كما فعل الفراء في معاني القرآن مثلا ، وهذا شيء لانجده في كتاب سيبويه بل كل ما جاء من ذلك تعابير عامة لاتعني أنه أخذ عن قبيلة بعينها من قبائل العرب ، بل الراجح أنه سمعها عن شيوخه الاخذين عن العرب أو عن الاعراب الوافدين الى البصرة . وما يقال من انه «شافه العرب وفهم مقاصدهم[٤٦]» لا يعني أنه رحل الى البادية بقصد الاخذ عن العرب في ديارهم ومواطنهم .

هذه هي عامة مصادر سيبويه التي أخذ عنها ممثلة في شيوخه وما أملوه عليه أو استملاه هو عليهم ، وممثلة فيما سمعه عن الاعراب الوافدين الى البصرة يضاف اليها هذا العدد الغزير من الآيات القرآنية وقراءاتها المتعددة ، وهذا القدر الضخم من الشواهد الشعرية والنثرية من أمثال ومحكيات عن العرب مما جعل كتابه منبعا فياضا بالمادة اللغوية الغزيرة والاساليب المتنوعة حتى صار مرجعا لاهل اللغة والنحو وعلوم العربية عامة .

---

(٤٥) المدارس النحوية ٥٨
(٤٦) مغني اللبيب

مادة الكتاب : موضوعاتها ، ترتيبها

يضم كتاب سيبويه بين دفتيه مادة غزيرة ومتنوعة في علوم اللغة. فهو يتضمن مباحث واسعة في موضوعات النحو تشمل أبواب الاسماء والافعال والحروف وما يترتب على تركيبها مع بعضها من أساليب كلامية تتمثل فيها ظواهر الاعراب المختلفة من رفع ونصب وخفض وجزم ، وظواهر الحذف والتقدير في أجزاء الجملة ومكوناتها .

ويتضمن أيضا مباحث واسعة في موضوعات الصرف من أبنية وصيغ للمفردات قياسية وغير قياسية ، وسواء كانت هذه المفردات أسماء أو أفعالا مما هو ميدان لعلم الصرف .

ويمكن ان يقال ان هذه المباحث النحوية والصرفية استوعبت جميع الابواب والموضوعات التي يتناولها هذان العلمان ، وأن العلماء الذين جاءوا بعد سيبويه لم يضيفوا الى ما قرره في كتابه من قواعد في هذين العلمين الا ما لا خطر له الامر الذى جعل المازني يقول منذ وقت مبكر : من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي[٤٧] .

والواضح أن مباحث الابنية الصرفية في كتاب سيبويه تشكل مرجعا مهما من مراجع اللغة ومفرداتها وغريب الفاظها .

يقول الزجّاج : اذا تأملت الامثلة من كتاب سيبويه تبينت انه أعلم الناس باللغة[٤٨] . ويقول النحاس نقلا عن المبرد : ان المفتشين

---

(٤٧) أخبار النحويين ٣٩

(٤٨) مقدمة الكتاب ص ٧ طبعة عبد السلام هارون ، وخزانة الادب ١٧٩/١

من أهل العربية ومن له المعرفة باللغة تتبعوا على سيبويه الامثلة فلم يجدوه ترك من كلام العرب الا ثلاثة أمثلة منها الهُنْدَلِع وهي بقلة والدرداقِس وهو عظم في القفا وشمنصير وهو اسم أرض(٤٩) .

وينقل صاحب الخزانة أن سيبويه روى في كتابه قطعة من اللغة غريبة لم يدرك أهل اللغة جميع ما فيها ، ومع ذلك فهم لم يردوا حرفا منها(٥٠) .

كما انا نجد الى جانب مباحث النحو والصرف مباحث في علم اللغة من تذكير وتأنيث وأخرى في الاصوات ، وجلها منقول عن شيخه الخليل ، وهي في الاصل مباحثه ، وكثير منها يعد مرجعا في علم التجويد .

ونجد أيضا الى جانب ذلك مباحث في لهجات العرب ولغاتها المختلفة ، وما فيها من ظواهر كلاميّة تميز بعضها عن بعض مثل الامالة والادغام والقلب ونحوها من الظواهر التي تختص بها قبائل من العرب دون أخرى .

وأمام هذا كله نجد التمهيد الذى وضعه سيبويه مدخلا لمباحث الكتاب النحوية والصرفية وأطلق عليه شراحه ودارسو كتابه اسم «رسالة كتاب سيبويه» يتضمن حديثا عن أقسام الكلم وحركات الاعراب والبناء مما سماه مجارى أواخر الكلم ، وحديثا عن المسند والمسند اليه وما يقع بين الكلمات من اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى وعما يعتري اللفظ من أسباب الذكر والحذف وما يلحق بالمعنى

---

(٤٩) نفس المرجع والصفحة
(٥٠) الخزانة ١٧٩/١

من حسن أو قبح واستقامة أو احالة ، ويختم موضوعاته بباب عن الضرائر الشعرية .

ويستغرق هذا التمهيد ثلاث عشرة صفحة من الجزء الاول من الكتاب حيث يبدأ بعدها الحديث عن باب الفاعل وهو أول الموضوعات النحوية .

يليه أبواب عن الفعل المتعدي واللازم ، وما ينصب اكثر من مفعول من الافعال . ثم الفعل المبني للمعلوم والفعل المبني للمجهول . وباب من الحال .

بعد هذه الابواب التي مدارها فكرة التعدي واللزوم يأتي باب كان واخواتها ، وما يشبهها في عملها ، ويستغرق ذلك جملة أبواب .

ثم باب من التعجب وباب التنازع وباب الاشتغال ، ويستغرق عدة أبواب تبلغ حوالي خمسة .

ثم باب تعليق ظن وأخواتها .

وأبواب عن اعمال اسم الفاعل والمصدر والصفة المشبهة .

ثم جملة أبواب من المنصوبات ، منها أبواب الاغراء والتحذير والمفعول المطلق والمفعول معه والمفعول لأجله والحال والظروف .

ثم باب الجر ، وبعده أبواب التوابع .

وينتهي الجزء الاول ، فيبدأ الجزء الثاني بأبواب ما ينصرف وما لا ينصرف ، وهي حوالي واحد وثلاثين باباً عامتها أبواب صغيرة .

بعد ذلك تبدأ المباحث الصرفية مبتدئة بالنسب ، وفيه جملة أبواب وهي حوالي واحد وعشرين باباً .

ثم أبواب التثنية في الاسماء الصحيحة والمعتلة •

ثم تأتي أبواب الجموع الصحيحة والمكسرة •

ثم أبواب التصغير

ثم باب القسم ، وظاهره أنه من أبواب النحو وليس من الصرف في شي •

وباب في ذهاب التنوين من الاسماء

ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة ،

ويسترسل في الأبواب الصرفية التي تدور حول أبنية الافعال الصحيحة والمعتلة والمقصور والممدود من الاسماء وجموع التكسير والأوزان الصرفية في الاسماء ومعرفة المجرد من المزيد ومعرفة حروف الزيادة ، والصحيح من المعتل •

ويختم المباحث الصرفية بالحديث عن الادغام ومواقعه والحروف العربية ومخارجها •

وترتيب سيبويه لموضوعات كتابه ، كما يلاحظ ، لم يجر على النسق الذي جرى عليه النحاة المتأخرون ممن عنوا بفصل المباحث النحوية عن المباحث الصرفية فصلا تاماً • كما يلاحظ أن متأخري النحاة قسموا مباحث النحو الى ثلاثة أقسام •

مبحث الأسماء ومبحث الافعال ومبحث الحروف وما هو مشترك بين الأسماء والافعال والحروف وهي أسماء الأفعال والاصوات ، كما جرى على ذلك الزمخشري في المفصل • وبعضهم تناول أولا الاسماء فقسمها الى مرفوعات وما يستتبع ذلك من حديث عن نواسخ الابتداء

من الافعـال الناقصة والحروف المشبّهة بالفعل والافعال المتعدّية الى أكثر من مفعول •

ثم منصـوبات ، وفيها جميع أنواع المفعولات والحـال والتميز والمستثنى •

ثم مجرورات ويدخل فيها الحديث عن حروف الجر والاضافة، واعمال الصفات والتوابع •

ويأتي بعد ذلك باب الافعال وعوامل جزمها ونصبها •

وهذا هو منهج ابن مالك في التسهيل والألفية •

والترتيب الذى جرى عليه سيبويه دفع بعض الناس الى القول بأن الكتاب ليس فيه ترتيب (٥١)

ولكن النظرة المتأنيّة في الكتاب تنتهي بنا الى القول أن القسـم الأول من الكتاب وهو يشـمل الجزء الاول وجانباً من الجـزء الثاني من النسخة المطبوعة يتضمن مباحث نحوية • وبطبيعة الحال لم يكن سيبويه هو الذى قسم كتابه على نحو ما نجـده في النسخة المطبوعة • فالمعروف أنه لم يقسـمه الى أجزاء أصـلا ، انما وضعه في كراريس والكراسة كما نعرف تحوي ثماني ورقات •

ومن هنا يبدو أن ما يراه بعض الباحثين اختلالا في منهج سيبويه بسبب وقوع مباحث الممنوع من الصرف في الجزء الثاني الذى يفترض أنه مخصص للمباحث الصرفية ليس كذلك (٥٢) •

---

(٥١) كشف الظنون ١٤٢٨

(٥٢) د . حسن عون : تطور الدرس النحوي ٣٤

فسيبويه لم يقسّم كتابه الى جزئين على نحو ما نراه في المطبوعة، وانما هو من عمل النساخ أو القائمين على طبع الكتاب • فيكون مبحث الممنوع من الصرف على هذا في سياق القسم الخاص بالابحاث النحوية لا في القسم الخاص بالصرف وهو الشطر الثاني من الكتاب •

على أن اعتذار الدكتور حسن عون عن سيبويه بأن هذا المبحث يقوم على صيغ خاصة تكثر مغايرتها للصيغ اللغوية الكثيرة المألوفة ، مما جعلها تخضع في اعرابها وتنظيمها الشكلي لنظام جديد ، وتخرج على قاعدة أمثالها من الصيغ المألوفة ، وان الاسماء الممنوعة من الصرف همّها الأكبر منصرف الى التغيير المتّصل بصيغها ، وهذا يقرّبها جداً من العمل الصرفي أو البحث الصرفي الذي يهتم أساساً بالصيغ المختلفة وما يطرأ عليها من تغيير • وهذا يجعل ظاهرة الاعراب وتنظيم الشكل أمراً ثانوياً[٥٣] • نقول ان هذا الاعتذار وان كان وجيهاً وذكياً ، فهو لا ضرورة له أساسا ، لاننا نستطيع القول ان تقسيم الكتاب على النحو الماثل في النسخة المطبوعة ليس من عمل سيبويه ، واذا قبلنا ما قرره الدكتور عون عن هذا المبحث ـ وهو تقرير وجيه ـ فان ما قيل عن وجود اضطراب أو خلل في ترتيب مباحث الكتاب يبدو لا أساس له ، وانه قائم على نظرة متعجلة •

أما ما قيل عن وجود باب القسم بين المباحث الصرفية وحقّه أن يكون بين مباحث النحو ، وما ذكروا في تعليله من أنه قد يكون حشر في قسم الصرف بواسطة من تصدّوا لتنظيم الكتاب بعد سيبويه لأدنى

---

(٥٣) نفس المرجع

ملابسة (٥٤)، يدفعه أن الحديث عن هذا الامر متصل بما بعده من حديث عن توكيد الفعل بنوني التوكيد الثقيلة والخفيفة • وسيبويه يقول في هذا الباب : والحلف توكيد •

كما يدفعه أن الحديث في هذا الباب يدور في شطر منه عن صيغ القسم وما يعتريها من تغيير • وهذا موضوع قد يدخل في مباحث الصرف على وجه من الوجوه (٥٥) •

فجملة الأمر في الحديث عن الفكرة العامة التي استلهمها سيبويه لترتيب أبواب كتابه على النسق الذى ارتضاه أن مدارها ـ كما يقرّر الاستاذ النجدي ـ العامل أولا وأخيراً • فسيبويه نظر في الجملة حين تكلم عن المسند والمسند اليه فاذا هي فعلية واسمية ، فتكلم عن الفعل المذكور وما حمل عليه في العمل وعني بذلك المرفوع من فاعل ونائبه واسم كان وأخواتها وما كان مرفوعاً في الأصل من مفعولات ظن وأخواتها ، ثم الحديث عن الفعل المحذوف والفعل المذكور وأنواع ما ينصبان من المفعولين وعن استعمالات المصدر وما حمل عليه • ثم تكلم عن عوامل الجر وما يتبع ذلك من حديث عن التوابع المجرورة ثم انتقل الى الحديث عن الجملة الاسمية وما تجرّه من حديث عن الابتداء ونواسخه مثل ان وأخواتها (٥٦) •

---

(٥٤) د . حسن عون ـ الدرس النحوي ٣٥ وسيبويه امام النحاة ١٧٩

(٥٥) انظر تعليق الدكتور عبدالحليم النجار فى حاشية الرمّاني النحوي لمازن المبارك ١١٤

(٥٦) سيبويه امام النحاة ١٧٨

وهذا التنسيق كما هو واضح مخالف لترتيب النحويين الذين يلتزمون في مصنفاتهم جمع النظائر من مرفوعات ومنصوبات ومجرورات فيفصّلون الحديث عنها في أبواب متعددة يجمعها الحكم الاعرابي من رفع أو نصب أو جرّ .

منهج سيبويه في الكتاب :

نعلم جميعاً أن كتاب سيبويه ثمرة ناضجة للدراسات النحوية التي سبقته . وهو في مادته وفي أسلوبه ومنهجه لا يمكن أن ينسلخ عما بذل قبله من جهود عند النحاة وبخاصة شيوخه الذين أخذ عنهم .

ويبرز من بين هؤلاء شيخه الخليل . وهو ـ كما ذكرنا ـ أبلغ القوم أثراً في سيبويه وفي كتابه .

والحديث عن منهج سيبويه في كتابه لا بدّ أن يقودنا أولا الى الحديث عن منهج الخليل ، لان سيبويه انما أخذ عنه وتأثر به ولازمه حتى آخر أيامه .

ومنهج الخليل في النحو ـ كما يحدثنا عنه الدكتور المخزومي ـ يقوم على الاستقراء . وهو منهج يتلاءم وطبيعة الدراسات اللغوية التي تعتمد أكثر ما تعتمد على الاستقراء . والخليل كان يتذوق الكلمات ومواقعها في العبارات ليدرك ما تدل عليه من معان اعرابية هي الصور النفسية التي مثلت في نفس العربي ، فأراد الى التعبير عنها ، وكان يتذوق الكلمات ليفقه ما في هذه الكلمات من أسرار . وكان يقلّب الجمل على وجوهها التي يحتمل أن يكون العرب قصدوا اليها

يقف على المعاني المختلفة التي تدل عليها هذه الوجوه [٥٧] .

وقد اصطنع الخليل التجربة أداة لتقعيد النحو والوصول الى أحكام عامة ، لان عقليته تعنى بالنظر الكلي العام . كان لا ينتهي من قاعدة الا ليواجه قاعدة أخرى ولا يفرغ من أصل الا ليبحث في أصل آخر [٥٨] .

كان يحاول اخضاع الاشتات للأحكام العامة لكي تصبح الدراسة اللغوية أشبه ما تكون بالدراسة العلمية حتى يتمكن الدارس من الاحاطة بالمسائل وتكون هذه الاصول أمامه بمنزلة الاعلام تهديه في طريقه لدراسة هذه الموضوعات [٥٩] .

ويجمع سيبويه في كتابه جهوده وآراءه في الموضوعات المختلفة الى جانب جهود شيوخه والذين سبقوه من العلماء ، فتراه في منهجه لا يتحرر من منهج الخليل . فهو ـ كما يقرر الاستاذ النجدي وكما يتضح لكل من يقرأ في كتابه ـ يدرس أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص ليكشف عن الرأي فيها صحة وخطأ أو حسناً وقبحاً أو كثرة وقلّة . وهو لا يلتزم تعريف باب من أبواب النحو ولا يلتزم مصطلحاً بعينه يردده كل ما دعت المناسبة للحديث عن موضوعه .

كما أنه لا يلتزم بتفريع الفروع أو التوسع في اشتراط الشروط لكل مسألة على نحو ما يفعل النحاة المتأخرون ، بل يعرض للموضوعات

---

(٥٧) الخليل بن أحمد الفراهيدي ٢٢٥
(٥٨) نفس المرجع والصفحة
(٥٩) المرجع السابق ٢٢٦

النحوية بكامل عناصرها محللا وموضحاً غير مكترث بصياغة قواعدها أو وضع ضوابطها على نحو ما يصنع غيره من النحاة المتأخرين •

وسبيله الى ذلك أن يتجه الى فكرة الباب كما يتمثلها في ذهنه فيستحضرها ويضع المعالم لها ويسوق أمثلتها وشواهدها مجموعة مصنفة محللا التراكيب مؤولا الألفاظ متنبها لما هو محذوف منها أو مقدر [٦٠] •

ويلتزم سيبويه ـ كما يقول بعض الباحثين ـ في معالجةجزئيات الفصول والابواب منهجاً تتمثل فيه ظاهرتان : الاولى تصنيفالقوالب اللغوية المتشابهة أو التي تجمعها خاصية واحدة ، وهنا يبدو الفرق بينه وبين غيره من النحاة • فهو يكثر من النماذج اللغوية مبيناً طرق الاستعمال العربي ووجه اعرابها ورأي النحاة فيها ، وهو نمط يتبعه في جملة أبواب الكتاب بينما يوجّه النحاة المتأخرون هممهم الى صياغة القاعدة النحوية أولا ثم يأتون لها بالأمثلة والنماذج بموجب الفروع والاقسام التي يرسمونها في الباب الواحد •

والظاهرة الثانية تتمثل في الطريقة الاستنتاجية التي يتبعها سيبويه لكي يستخلص القاعدة بعد الاستقراء الواسع للآثار اللغوية التي تعكس الظاهرة مدار الباب • وقد يلجأ سيبويه الى عرضالنماذج وتحليلها مهيئاً للقارىء أوالدارس وسائل الاستنتاج وتاركاً له الفرصة لكي يقوم بنفسه بالعملية الاستنتاجية الأخيرة [٦١] •

---

(٦٠) سيبويه امام النحاة ١٥٨
(٦١) د . حسن عون : تطور الدرس النحوي : ٣٩

وهذا المنهج لا يبعد كثيراً ـ كما رأينا ـ عما وجدناه عند الخليل • ولكي تتضح هذه المبادىء التي تقررت في منهج سيبويه في عرض المادة النحوية لا بد لنا أن نعرض نموذجاً من تحليلاته للاساليب العربية والتراكيب اللغوية •

في باب ما جرى من الاسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الاسماء التي أخذت من الفعل ، يقول سيبويه ممثلا لعنوان الباب : وذلك قولك : أتميمياً مرة وقيسياً أخرى ؟ وانما هذا أنك رأيت رجلا في حال تلوّن وتنقل فقلت : أتميمياً مرة وقيسياً أخرى ؟ كأنك قلت : أتتحول تميمياً مرة وقيسياً أخرى ؟ فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له ، وهو عندك في تلك الحال في تلوّن وتنقل وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه اياه ويخبره عنه ، ولكنه وبّخه بذلك • وحدثنا بعض العرب أن رجلا من بني أسد قال يوم جبلة واستقبله بعير أعور فتطيّر منه فقال : يابني أسد ، أعورَ وذا ناب ؟! فلم يرد أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته ولكنه نبههم ، كأنه قال : أتستقبلون أعور وذا ناب ؟ والاستقبال في حال تنبيهه اياهم كان واقعاً كما كان التلوّن والتنقل عندك ثابتين في الحال الاولى، وأراد أن يثبت لهم الأعور ليحذروه ••• »[٦٢]

فهذا الاسلوب في تحليل الفكرة أو ظاهرة النصب في هذه الاسماء هو أسلوب أقرب الى عمل أهل المعاني منه الى عمل أهل النحو • ليس فيه تقرير قاعدة دون أن يسبقها تحليل وليس فيه تعليل

---

(٦٢) الكتاب ١/١٧٢

فلسفي عقلي لظواهر اللغة ، الامر الذى نفتقده عند متأخرى النحاة ممن طغى على كتاباتهم التفلسف والولع بالتقسيمات والايغال باشتراط الشروط وتقرير القواعد النظرية .

ونموذج آخر لهذه التحليلات يلقانا في «باب ذكر معنى لبيك وسعديك وما اشتقا منه» .

يقول سيبويه : وانما ذكر ليبين لك وجه نصبه كما ذكر معنى «سبحان الله» . حدثنا أبو الخطاب أنه يقال للرجل المداوم على الشيء لايفارقه ولا يقلع عنه : قد ألب فلان على كذا وكذا ، ويقال : قد أسعد فلان فلانا على أمره وساعده . والالباب والمساعدة دنو ومتابعة ، اذا ألب على الشيء فهو لايفارقه ، واذاأسعده فقد تابعه ، فكأنه اذا قال الرجل للرجل : يا فلان ، فقال : لبيك وسعديك فقد قال : قربا منك ومتابعة لك .

فهذا تمثيل وان كان لا يستعمل في الكلام ، كما كان «براءة الله» تمثيلا لسبحان الله ، ولم يستعمل . وكذلك اذا قال : لبيك وسعديك ، يعني بذلك الله عزوجل ، كانه يقول : اي رب لا أنأى عنك في شيء تأمرني به . فأذا فعل ذلك فقد تقرب الى الله بهواه .

وأما قوله : وسعديك ، فكأنه يقول : أنا متابع أمرك وأولياءك غير مخالف ، فأذا فعل ذلك فقد تابع وأطاع وطاوع .

وانما حملنا على تفسير لبيك وسعديك لنوضح به وجه نصبهما، لانهما ليسا بمنزلة سقيا ورعيا وحمدا وما أشبهه ، ألا ترى أنك تقول للسائل عن تفسير سقيا وحمدا : انما هو سقاك الله سقيا وأحمدالله حمدا ، وتقول : حمدا بدل من أحمد وسقياً بدل من سقاك الله ولا

تستطيع أن تقول : ألبك لبا واسعدك سعدا • ولا تقول : سعدا ، بدل من أسعد ولا لبا بدل من الب ، فلما لم يكن ذاك فيه التمس له شيء من غير لفظه ، معناه براءة الله حين ذكرتها لأبيّن معنى سبحان الله فالتمست ذلك للبيك وسعديك وللفظ الذى اشتقا منه اذ لم يكونا فيه بمنزلة الحمد والسقي في فعلهما ولا يتصرفان تصرفهما ، فمعناهما القرب والمتابعة فمثلت بهما النصب في سعديك ولبيك كما مثلت ببراءة النصب في سبحان الله ••••»[٦٣] •

فلامراء في ان من يقرأ هذا الكلام لا يكاد يتصور انه يقرأ كتابا في النحو بل يقرأ كتابا في المعاني أو اللغة • واين هذا من كلام النحاة المتأخرين الذين لايذكرون عند الحديث عن هذه الصيغ الا أنها مصادر سماعية منصوبة على المصدرية أو المفعولية المطلقة ، ولا يفردون لها حديثا بل يذكرونها ملحقة بباب المفعول المطلق من المصادر القياسية •

فهذا التحليل للعبارات والتراكيب اللغوية والاطالة فيه بتقليب التعابير على مختلف الوجوه تشبيها تارة وتفسيرا تارة أخرى هو السمة المميزة لمنهج سيبويه عن مناهج المتأخرين •

ولايخفى أن هذا الاسلوب لدى سيبويه يعكس في واقعه الصورة الاولى التي ابتدأت بها الدراسات النحوية والطريقة التي كان يسلكها النحاة الاوائل لتقرير الاحكام النحوية وتوجيه ظواهر الاعراب مستخلصين ذلك من تحليل النصوص والتعابير التي سمعوها عن العرب أو قاسوها على استعمالاتهم ، وهي كما ترى صورة يمتزج فيها المبحث

---

(٦٣) الكتاب ١/١٧٧

النحوي بالمبحث البياني ، الامر الذى لم يبق على حاله عند المتأخرين بل اتجه نحو الفصل بين المباحث النحوية والمباحث البيانية فخسر الدرس النحوي بذلك كثيرا من طرافته وكثيرا من جماله ولذته(٦٤) .

وقد يكون من تمام الحديث عن منهج سيبويه أن نتحدث عن ظاهرة التعليل عنده . فسيبويه يعنى في كتابه عناية شديدة بتعليل الظواهر الاعرابية والصرفية وعامة الظواهر اللغوية . وهو في تعليلاته كثيرا ما يعتمد على ما ينقله عن شيوخه مثل الخليل ويونس ممن كان لهم اهتمام في هذا الجانب من جوانب الدراسة النحوية واللغوية .

والمعروف أن عملية بناء النحو ونشأته رافقتها نشأة العلل التي يفسر بها النحاة الظواهر اللغوية والنحوية ويردون بها على تساؤلات الدارسين للغة ونصوصها والمعنيين بأمرها .

واتصفت هذه التعليلات في مبدأ أمرها بالابتعاد عن التفلسف والاقتراب من روح اللغة وحسها الذى ينفر من القبح والثقل والتنافر اللفظي . كما كانت تتصف بأنها تلتزم موافقة الاعراب للمعنى ، ولذا وردت بأسلوب أقرب الى الجزم والتقرير منه الى الفرض والتخيل والجدل(٦٥) .

يتجلى هذا فيما كان الخليل يعلل به بعض الظواهر الاعرابية . فهو يعلل النصب في قولهم : ما أحسن عبدالله . فيقول : أنه بمنزلة قولك : شيء أحسن عبدالله ، ودخله معنى التعجب .

---

(٦٤) عرض ابراهيم مصطفى في الفصلين الاولين من كتابه احياء النحو الى كثير مما يتصل بهذا الذي قررناه هنا .
(٦٥) النحو العربي ـ د . مازن المبارك ٥٧

قال سيبويه : وهذا تمثيل ولم يتكلم به[٦٦] .

ومنه ما علل به دخول نون الوقاية على قد وقط وعن ومن ولدن عند اضافتها الى ياء المتكلم ، ونون الوقاية انما تدخل على الافعال ، فقال ليس في الدنيا حرف تلحقه ياء الاضافة الا كان متحركا مكسورا ، ولم يريدوا أن يحركوا الطاء التي في قط ولا النون التي في من ، فلم يكن بد من أن يجيئوا بحرف لياء الاضافة متحرك . ثم قال : وكانت النون أولى ، لان من كلامهم أن تكون النون والياء علامة المتكلم[٦٧] .

فهذه كما نرى تعليلات دقيقة تقتضيها ظواهر اللغة الصوتيـة المتمثلة في الحركات وهي كما نرى تفسيرات مقنعة مقبولة لانها تستند الى ظواهر ملموسة في نظام الكلام .

وعندما يسأل الخليل بن احمد ـ وهو أول من بسط القول في العلل ـ عن العلل التي يتعلل بها عن العرب أخذها أم اخترعها من نفسه يقول : ان العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقـع كلامها وقام في عقولها علله وان لم ينقل ذلك عنها واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه[٦٨] .

والتعليل يلقانا في كتاب سيبويه منذ مباحثه الاولى . فهو يعلل امتناع الافعال عن الجر بأن المجرور داخـل في المضاف اليـه معاقب للتنوين وليس ذلك في الافعال[٦٩] .

---

(٦٦) الكتاب ١/ ٣٧

(٦٧) الكتاب ١/ ٣٨٦

(٦٨) الايضاح للزجاجي ٦٦

(٦٩) الكتاب ١/ ٣

ويعلل عدم بناء الفعل الماضي على السكون بأن فيه بعض ما في الفعل المضارع من الدلالة على الزمن المتصل في بعض استعمالاته[٧٠].

ويعلل رفع المثنى بالالف لا بالواو بأنه للتفريق بين ما هو مثنى وما هو جمع[٧١].

ويعلل اختيار النصب في مثل قولنا : رأيت زيدا وعمرا كلمته ، بأن الاسم الاول مبني على الفعل فكان بناء الاخر على الفعل أحسن عند العرب[٧٢].

ويعلل انتصاب الاماكن والاوقات بأنها ظروف تقع فيها الاشياء وتكون فيها ، فانتصبت لانه موقوع فيها ومكون فيها وعمل فيها قبلها كما ان العلم اذا قلت : أنت الرجل علما ، عمل فيه ما قبله ، وكما عمل في الدرهم عشرون اذا قلت عشرون درهما . وكذلك يعمل فيها ما بعدها وما قبلها[٧٣].

وهكذا لايكاد يترك ظاهرة اعرابية دون أن يعلل لها .

وكما يعلل الظواهر النحوية يعلل أيضا الظواهر الصرفية . يقول في تصغير بشرى وأخرى : بشيرى وأخيرى . ويعلل فتح ما قبل الالف بأنها لما كانت الف تأنيث لم يكسروا الحرف بعد ياء التصغير ، وجعلوها ههنا بمنزلة الهاء التي تجيء للتأنيث ، وذلك قولك في طلحة طليحة وفي سلمة سليمة . وانما كانت هاء التأنيث بهذه المنزلة لانها

---

(٧٠) الكتاب ١/٤

(٧١) الكتاب ١/٤

(٧٢) الكتاب ١/٤٦

(٧٣) الكتاب ١/٢٠١

تضم الى الاسم كما يضم موت الى حضر وبك الى بعل[٧٤] .

وتعليلات سيبويه كما تراها تستوحي طبيعة اللغة وقوانين النطق ولا تحاول التشبث بقوانين المنطق العقلي المجرد في التعليل على نحو ما نراه عند متأخري النحاة حين يعللون بناء اسم لا النافية للجنس على ما ينصب به بأنه جاء كذلك قياسا على اسم ان وذلك أن ان للتوكيد في المثبت ولا لتوكيد النفي والنقيض قد يقاس على نقيضه . وعلى ذلك قالوا بما سموه علة نقيض وعلة شبيه وعلة فرق وعلة معادلة وعلة تعويض الى آخر ما جاءوا به من علل .

المصطلح النحوي عند سيبويه :

يمثل المصطلح النحوي في كتاب سيبويه ـ في كثير من صوره ـ بقايا مرحلة عدم الاستقرار التي كان النحو العربي يمر بها قبل أن ينضج ويستوي على يد الخليل وتلميذه سيبويه .

ففي الوقت الذى نرى فيه كتاب سيبويه يجمع بأحاطة تامة قواعد النحو والصرف وكثير من قواعد الاصوات والظواهر اللغوية الاخرى نجد أن مجهود سيبويه في مجال صياغة المصطلح لايزال يفتقر الى المزيد من الدقة والسعي من أجل وضع مصطلحات اكثر استقرارا واكثر ايجازا للتعبير عما تنطوي عليه من مضامين . وعلى الرغم من أن كثيرا من المصطلحات المتداولة عند متأخري النحاة هي ثمرة من ثمار كتاب سيبويه ، وانها تمثل جهوده وجهود شيوخه في هذا الباب فأننا نجد سيبويه عاجزا عن خلق مصطلحات لكثير من

---

(٧٤) الكتاب ٢/١٠٧

الابواب النحوية المعروفة • فباب الفعل اللازم يترجم له سيبويه بعبارة « باب الفاعل الذي لم يتعده فعله الى مفعول »(٧٥) •

وباب النائب عن الفاعل يترجم له بعبارة «باب المفعول الذى لم يتعد اليه فعل فاعل ولا تعدى فعله الى مفعول آخر(٧٦) •

وباب الافعال الناقصة يترجم له بعبارة «باب الفعل الذى يتعدى اسم الفاعل الى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد»(٧٧)

وباب التنازع يترجم له بعبارة «باب الفاعلين والمفعولين اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به(٧٨) •

وباب الاشتغال يترجم له بعبارة «باب ما يكون فيه الاسم مبنيا على الفعل قدم أو أخر وما يكون فيه الفعل مبنيا على الاسم»(٧٩) •

وباب البدل يترجم له بعبارة «باب من الفعل يستعمل في الاسم ثم تبدل مكان ذلك الاسم اسما آخر فيعمل فيه كما عمل في الاول(٨٠)

وباب اعمال اسم الفاعل يترجم له بعبارة «باب من اسم الفاعل الذى جرى مجرى الفعل المضارع في المفعول في المعنى فاذا أردت فيه من المعنى ما أردت في « يفعل » كان منونا نكرة »(٨١)

وباب أسماء الافعال يترجم له بعبارة «باب من الفعل سمي الفعل

---

(٧٥) الكتاب ١/١٤

(٧٦) الكتاب ١/١٤

(٧٧) الكتاب ١/٢١

(٧٨) الكتاب ١/٣٧

(٧٩) الكتاب ١/٤١

(٨٠) الكتاب ١/٧٥

(٨١) الكتاب ١/٨٢

فيه بأسماء لم تؤخذ من أمثلة الفعل الحادث وموضعها من الكلام الامر والنهي»[٨٢] •

وباب المفعول له يترجم له بعبارة «باب ما ينتصب من المصادر لانه عذر لوقوع الامر[٨٣] •

ومن جانب اخر نجد ان عددا من مصطلحات سيبويه لم يكتب لها الذيوع والانتشار عند المتأخرين بل استبدلوا بها مصطلحات أخرى اكثر ملاءمة لمضامين الابواب • فباب النسبة مثلا عند النحاة كان سيبويه يضع له اصطلاح باب الاضافة وذلك أن المنسوب عنده مضاف الى ياء النسبة ، ولكن هذه التسمية تختلط بباب الاضافة المعروف في النحو •

وباب التصغير كان سيبويه يصطلح عليه في عدد من المواضع بباب التحقير • ووجد النحاة أن التصغير قد لا يكون مرادا به التحقير دائما وانما قد يراد به التحبيب • كما كان يسمي الصلة بالحشو وان كان يعبر عنها أحيانا باصطلاح الصلة •

على أننا نجد كثيرا من المصطلحات التي وردت في كتاب سيبويه باقية كما هي وتتداولها السنة الدارسين كما جاءت في الكتاب مثل الحال والاستثناء والنداء والندبة واسم الفاعل والمفعول والمعتل والصحيح وغيرها •

وسيبويه قد يتحرر من استخدام مصطلح بلفظ واحد بل نراه يطلق عليه تسمية في موضع وتسمية أخرى في موضع أخر •

فالتنوين مثلا يسميه تنوينا أحيانا ونونا أحيانا أخرى[٨٤] •

---

(٨٢) الكتاب ١/١٢٢

(٨٣) الكتاب ١/١٨٤

(٨٤) الكتاب ١/٤ ، ٤٨ ، ٥٠

فسيبويه على هذا لم يلتزم مصطلحات ثابته مستقرة يرددها على نحوما يفعل متأخرو النحاة بل هي أسماء عابرة وتراكيب متغيرة لاتكاد تثبت على لفظ واحد أو صورة واحدة الا قليلا مثلها كمثل المفردات المترادفة والتراكيب المتنوعة تتوارد على معنى واحد(٨٥) •

الاستشهاد في كتاب سيبويه :

يجري سيبويه في استشهاده لما يقرر من قواعد النحو والصرف واللغة على ما جرى عليه شيوخه من النحاة والذين سبقوهم •

وتنحصر مصادر الاستشهاد عند هؤلاء في القرآن الكريم والكلام العربي الفصيح المنقول عمن يصح الاستشهاد بكلامهم من العرب الفصحاء •

ويعتمد سيبويه في استشهاده بصورة واضحة على آيات القرآن الكريم •

ويلقانا ذلك في نحو ثلاث مئة وخمسين موضعا ، ولكنه يبدو قليلا اذا ما قورن بما استشهد به من شعر • فقد بلغ استشهاده به نحو ألف وخمسين مرة • والقرآن كما نعلم هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة • وقراءاته جميعا الواصلة الينا بالسند الصحيح حجة لا تضاهيها حجة •

غير أن لسيبويه ـ شأنه في ذلك شأن شيوخه البصريين من أصحاب القياس المتشدد ـ موقفا من قراءات القراء يقوم على الاعتداد بالقراءات المتفقة مع القياس العام واطراح ما سواها ، بتجاهلها وعدم

---

(٨٥) سيبويه امام النحاة ١٦٧

الاعتماد عليها في تقرير القواعد أو عدم قبولها وتضعيفها ان لم يعمد الى تلحين من قرأ بها أو نقل شيئاً في هذا المعنى[٨٦] • فهو يستشهد في باب البدل بقوله تعالى : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه[٨٧] •

وقوله تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا[٨٨] •

ويتشهد لاضافة اسم الفاعل الى مفعوله بعد تخفيف تنوينه وكفه عن العمل بقوله تعالى : كل نفس ذائقةُ الموتِ • وقوله تعالى : أنا مرسلو الناقةِ • وقوله تعالى : هديا بالغَ الكعبة[٨٩] •

ويقرر سيبويه أنه لايجوز الفصل بين المضاف والمضاف اليه بالظرف او نحوه الا في ضرورة الشعر فيقول : ولا يجوز يا سارقَ الليلةَ اهل الدار الا في الشعر ، كراهية أن يفصلوا بين الجار والمجرور[٩٠] •

وهناك ـ كما هو معروف ـ قراءة مشهورة لابن عامر يفصل فيها بين المضاف والمضاف اليه بغير الظرف أي بالمفعول ، وذلك قوله تعالى : وكذلك زُين لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم[٩١] • وقد لحن جمهور النحاة هذه القراءة وقالوا : لانعرف لها وجها في

---

(٨٦) انظر ما نقله عن أبي عمرو في هذا الصدد • الكتاب ١/٣٩٧

(٨٧) البقرة ٢١٧ ، الكتاب ١/٧٥

(٨٨) آل عمران ٩٧ ، كتاب ١/٧٥

(٨٩) آل عمران ١٨٥ ، القمر ٢٧ ، المائدة ٩٥ والكتاب ١/٨٤

(٩٠) الكتاب ١/٨٩

(٩١) الانعام ١٣٧ وانظر النشر ٢/٢٥٥ ومعاني القرآن للفراء ١/٣٥٨ ، ٢/٨١

العربية . وقال الزمخشري : انها شيء لو كان في مكان الضرورات ـ وهو الشعر ـ لكان سمجا مردودا[٩٢] . ولكن قوما من متأخري النحاة أجازوا ذلك استنادا الى هذه القراءة منهم ابن مالك وابن هشام وغيرهم ، ونسب ذلك للكوفيين أيضا[٩٣] .

وسيبويه أيضا يمنع العطف على الضمير المخفوض من غير اعادة الخافض الا في الضرورة ويتجاهل قراءة حمزة ، أحد القراء السبعة، قوله تعالى : واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ . بخفض الارحام ، عطفا على الضمير المجرور بالباء[٩٤] .

أما كلام العرب الفصحاء الذين يصح الاستشهاد بكلامهم فسيبويه يستكثر منه في مجالي النثر والشعر . والنثر يتمثل في تعبيرات مسموعة عن العرب تتردد على ألسنتهم وتتضح فيها أساليبهم من حذف وتقديم وتأخير ونصب ورفع ونحو ذلك ، أو في أمثال يتمثلون بها ويتناقلونها بصيغة واحدة .

فمن الطائفة الاولى قولهم : اشتمل الصماء ، وقعد القرفصاء ، ورجع القهقرى وقول العرب : ما جاءت حاجَتك[٩٥] . وقولهم : هذا حجر ضبٍ خربٍ[٩٦] .

---

(٩٢) الكشاف ١/٢٥٣ (ط بولاق)
(٩٣) التسهيل ٤٧ والتوضيح ٢/٣١ والانصاف : مسألة ٦٠ وابن يعيش ٣/٢٢ ومجالس ثعلب ١٥٢
(٩٤) انساء ١ وانظر النشر ٢/٢٣٩ ، الانصاف م ٦٥ ، الكتاب ١/٣٩١
(٩٥) الكتاب ١/٢٤
(٩٦) الكتاب ١/٣٤

وقولهم : خلق الله الزرافة يديها اطول من رجليها[٩٧] • ومطرنا الزرع والضرع[٩٨] • ورأسه والحائط ، وشأنك والحج ، وقولهم : ماز رأسك والسيف[٩٩] • وقولهم : كلمته فاه الى فيّ ، وبايعته يدا بيد[١٠٠] وقولهم : هو منى فرسخان[١٠١] • وهو مني عدوة الفرس[١٠٢] •

ومن أمثالهم التي يستشهد بها : عسى الغوير أبؤسا[١٠٣] • اللهم اللهم ضبعا وذئبا ، بمعنى اللهم اجمع أو اجعل فيها • وامر مبكياتك لا أمر مضحاتك • الضباء على البقر[١٠٤] • ان لا حظية فلا أليـّةوقولهم: غَضَبَ الخيلِ على اللجم كأنه قال : غضبت ، أو رآه غضبان فقال : غضبَ الخيل[١٠٥] •

على ان سيبويه لا يتردد في رفض بعض تعبيراتهم التي لاتتفق مع القياس النحوى ووصفها بالقبح وهو يريد به الخطأ • قال : وزعم يونس أن قوما من العرب يقولون : أما العبيدَ فذو عبيد ، وأما العبدَ فذو عبد ، يجرونه مجرى المصدر سواء ، وهو قليل خبيث[١٠٦] •

---

(٩٧) الكتاب ١/٧٧
(٩٨) الكتاب ١/٧٩
(٩٩) الكتاب ١/١٣٨
(١٠٠) الكتاب ١/١٩٥
(١٠١) الكتاب ١/٢٠٦
(١٠٢) الكتاب ١/٢٠٦
(١٠٣) الكتاب ١/٢٠٦
(١٠٤) الكتاب ١/٢٤ ، ٧٩ ، ١٢٩
(١٠٥) الكتاب ١/١٢٩
(١٠٦) الكتاب ١/١٣٧
(١٠٧) الكتاب ١/١٩٤

وقال : وشبهوه بما هو في الرداءة مثله ، وهو قولهم : ويلٌ له وتبٌ .

وقال : واعلم أن ناسا من العرب يغلطون فيقولون : انهم اجمعون ذاهبون وانك وزيد ذاهبان (١٠٧ أ) .

أما الشعر فهو يستشهد به في حوالي الف وخمسين موضعا كما قلنا . والشعر عنده قد يكون شاهدا على قاعدة عامة مطردة في الكلام العربي شعره ونثره ، وقد يكون شاهدا على موضع من مواضع الضرورة ولا يجوز في الكلام المنثور(١٠٨) .

وهو يستشهد بأشعار الجاهليين والاسلاميين ممن عاشوا في عصر صدر الاسلام أو عصر الدولة الاسلامية ولايستشهد بأشعار المتأخرين مثل بشار بن برد وأبي نؤاس ومسلم بن الوليد ممن عاصرهم في البصرة أو في بغداد أو غيرها من الحواضر الاسلامية .

وشواهد سيبويه على كثرتها تعد عند النحاة أوثق الشواهد . ويقول العلماء : انّ الشاهد المجهول قائله وتتمته ان صدر عن ثقة يعتمد عليه قبل والا فلا ، ولهذا كانت ابيات سيبويه أصح الشواهد ، اعتمد عليها خلف بعد سلف مع أنّ فيها أبياتا عديدة جهل قائلوها وما عيب بها ناقلوها ، وقد خرج كتابه الى الناس والعلماء كثير والعناية بالعلم وتهذيبه أكيدة ونظر فيه وفتش فما طعن أحد من المتقدمين عليه ولا ادعى أنه أتى فيه بشعر منكر . وقد روى في

(١٠٧ أ) الكتاب ١/ ٢٩٠

(١٠٨) الكتاب ١/ ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

كتابه قطعة من اللغة غريبة لم يدرك أهل اللغة معرفة جميع مافيها ولا ردوا حرفا منها •

قال الجرمي : نظرت في كتاب سيبويه فأذا فيه ألف وخمسون بيتا ، فأما الالف فقد عرفت أسماء قائليها فأثبتها وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها(١٠٩) •

ولكن ذلك لم يمنع بعض العلماء ـ مثل المبرد الذي عـــرف بكثرة اعتراضه على سيبويه حتى ألف في ذلك كتابا في الرد عليه ـ من أن يطعنوا في صحة بعض شواهد سيبويه •

قال المبرد في الكامل : وقد روى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة وكلاهما مصنوع وليس أحد من النحويين المفتشين يجيز مثل هذا (أي اتصال اسم الفاعل بنون الوقاية) في الضرورة لما ذكرت من انفصال الكناية (أي الضمير) • والبيتان اللذان رواهما سيبويه •

هـــم القـــائلون الخير والآمـرونه
اذا ما خشوا يوما من الامر معظمـــا

وأنشد

ولـــم يـرتفق والنـاس محتضـرونه
جميعا وأيـدي المعتفين رواهقـه(١١٠)

وقال في المقتضب : واحتج سيبويه (أي على اعمال فعِل عمل فعله) بهذا البيت :

---

(١٠٩) مقدمة الكتاب (ط هارون) والخزانة ١/ ٨ ، ١٧٩
(١١٠) الكامل ١/ ٣٦٤

حذِرٌ أموراً لا تضير وآمنٌ

ما ليس منجيه من الاقدار

وهذا بيت موضوع محدث(١١١)

وفي الخزانة : أن المازني قال : أخبرني أبو يحيى اللاحقي قال : سألني سيبويه عن فَعِل يتعدى فوضعت له هذا البيت(١١٢) .

قال البغدادي : واذا حكى أبو يحيى مثل هذا عن نفسه ورضي بأن يخبر انه قليل الامانة لم يكن مثله يقبل قوله ويعترض به على ما قد اثبته سيبويه .

وسيبويه يقول : وقد جاء في الشعر فزعموا أنه مصنوع :

هم القائلون الخير .... البيت(١١٣) .

فهو يستدرك على هذا الشاهد الذي جاء به بأنه مصنوع ولم يدرجه غفلا من الملاحظة .

شروح الكتاب :

عني العلماء منذ عهد مبكر بكتاب سيبويه بين معلق عليه وشارح له أو لشواهده ومجرد لاحكامه ومختصر لابوابه او ناقد له ومستدرك عليه .

وقد أحصى صاحب كشف الظنون حوالي خمسة وثلاثين مصنفا

---

(١١١) المقتضب ٢/١١٦

(١١٢) خزانة الادب ٣/٤٥٦

(١١٣) الكتاب ١/٩٦

مما وضع على كتاب سيبويه[114] وأحصى الاستاذ عبدالسلام هارون من ذلك خمسة وخمسين مصنفا .

وتبدأ عناية الناس بالكتاب بالتعليقات التي وضعها عليه أبو الحسن الاخفش سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١٥ هـ ، وهو كما نعلم أول من حمل الكتاب عن سيبويه وأقرأه للناس . وقد دخلت هذه التعليقات في متن الكتاب كما روى بعضهم وان كان العلماء استطاعوا ان يميزوا بينها وبين متن الكتاب .

وقام أبو عمر الجرمي تلميذ الاخفش المذكور بنسبة ما لم ينسبه سيبويه من أبيات الكتاب غير خمسين منها لم يعرف أسماء قائليها .

وتوالى اهتمام العلماء بعد ذلك بالكتاب فشرحه منهم : أبو عثمان المازني (ت ٢٤٨هـ) وأبو بكر بن السراج ٣١٦هـ وأبو سعيد السيرافي ٣٦٨هـ وكتابه أشهر ما وضع من الشروح على كتاب سيبويه وأغزرها مادة ، وقد طغى على غيره من الشروح مثل شرح الرماني وتعليقة الفارسي وكلاهما معاصران له .

ومن هؤلاء أيضا أبو الحسن الرماني ت ٣٨٤هـ وأبو العلاء المعري الشاعر ٤٤٩هـ والزمخشري ٥٣٨هـ ، وقيل انه شرح شواهده وابن خروف ٦٤٥هـ والصفار ٦٣٠هـ وأبو علي الشلويين ٦٤٥هـ وابن الحاجب ٦٤٦هـ وابن الضائع ٦٨٠هـ وأبو حيان النحوي ٨٤٥هـ . وممن الف في مشكلاته ونكته أبو عمر الجرمي ٢٢٥هـ والزيادي ٢٤٩هـ وأبو حاتم السجستاني ٢٥٠هـ والمبرد ٢٨٥هـ وثعلب ٢٩١هـ وابن درستويه ٣٤٧هـ وأبو بكر الزبيدي ٣٨٠هـ وابن الطراوة ٥٢٨هـ

---

(١١٤) كشف الظنون ١٤٢٦

وممن شرح شواهده أبو اسحاق الزجاج ٣١٠هـ وابن النحاس ٣٣٨هـ وابن السيرافي يوسف ٣٨٥هـ والاعلم الشنتمري ٤٧٦هـ والعكبري ٦١٦هـ .

وممن اختصره الجرمي ٢٢٥هـ والعكبري ٦١٦هـ وأبو حيان الاندلسي ٧٤٥هـ .

قيمة كتاب سيبويه وأقوال العلماء فيه :

تبرز أهمية كتاب سيبويه في تاريخ النحو العربي بصفته أول كتاب يجمع بين دفتيه قواعد النحو والصرف جمعاً شاملا مستوعباً لكل أصولها وفروعها ودقائقها حتي ان الذين جاءوا بعده لم يضيفوا الى ما قرر سيبويه في كتابه من قواعد في هذه العلمين شيئاً ذا بال ، وذلك أمر " محير " حقاً ، اذ يندر أن نجد ظاهرة مثل هذه في تاريخ أي علم من العلوم ، مما دفع بعض الناس من القدماء الى القول بأن كتاب سيبويه هو في الاصل كتاب الجامع لعيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) فما زاد سيبويه على أن بسطه وحشاه من كلام الخليل وغيره ، وانه كان كتابه الذي اشتغل به ، فلما استكمل بالبحث والتحشية نسب اليه[١١٥] وكان ثعلب يقول : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان واربعون انساناً منهم سيبويه والاصول والمسائل للخليل[١١٦] .

وذهب بعض المحدثين الى مثل ذلك حين قال بأن سيبويه قد

---

(١١٥) انباه الرواة ٣/٣٤٧

(١١٦) الفهرست ٥١ وانباه الرواة ٣/٣٤٧

تعلم أصول علم النحو عن غير العرب أو بالتحديد من الهنود الذين كانوا يعيشون بالبصرة حيث عاش سيبويه نفسه(١١٧) •

والحق اننا اذا تجاهلنا الجهود الواسعة التي سبقت كتاب سيبويه في مجال الدراسات النحوية فان ذلك لاشك سيؤدي بنا الى مثل هذا التصور الواهم الذى ذهب اليه الباحث السابق • ولكننا يجب أن نأخذ كتاب سيبويه على حقيقته ، وهو أنه سجل مستوعب لجهود عامة النحاة الذين سبقوه ، سواء كانوا شيوخه أو من سبقوهم في هذا المضمار من النحاة • كما أن كتاب سيبويه في صورته التي هو عليها يمثل - بلا شك - مرحلة مبكرة في الدراسات النحوية والتأليف فيها ، وذلك من حيث أسلوبه وصياغة موضوعاته وترتيب هذه الموضوعات•

فليس يكفي أن يكون هذا الكتاب جامعاً لقواعد النحو والصرف حتى نرى فيه أمراً معجزاً وانه لا يمكن أن يكون الا ثمرة لتظافر عدة مؤلفين أو أن صاحبه تعلّم أصول علمه عن أمم أجنبية سبقت العرب في هذا المضمار •

ان الأمر في واقعه وحقيقته أيسر وأهون من هذا بكثير ، فسيبويه لم يفعل أكثر من أن استوعب بذكاء نادر وعبقرية نفّاذة دروس شيوخه وملاحظاتهم وما أضاف الى ذلك من استقصائه الواسع للاستعمالات اللغوية عند العرب في الشعر أو في النثر معززاً ذلك بقدر غير يسير من الآيات القرآنية وقراءاتها المتعددة فكان له بذلك ما أراد

---

(١١٧) التفكير اللغوي عند العرب لعبدالرحمن ايوب (مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ٢٤ ص ١٢١)

من استيعاب لقواعد هذه اللغة في نحوها وصرفها معللا لكثير من ظواهر اللغة بما سمعه من شيوخه وبما استنبطه هو من نفسه •

أما ما يقال من أننا لم نجد قبل سيبويه كتاباً في هذا الشأن يمكن أن يكون خطوة في هذا السبيل ، كما لم نقرأ لواحد من الذين سبقوه قاعدة نحوية واحدة أو مصطلح واحد في القواعد اللغوية أو الاصوات ينسب الى أعلام القراء أو أساطين اللغة ، فهو كلام ينم عن فهم غير دقيق لحقائق الامور ونظرة متعجلة في استيعابها •

فحكاية انعدام الكتب قبل سيبويه مسألة لم تثبت تاريخياً بل المروي في ذلك أن شيوخ سيبويه ومعاصريه وضعوا في اللغة كتباً ليست قليلة • وأما ضياعها فلا يمكن أن يكون مبرراً لانكارها ، بل يمكن القول ان كتاب سيبويه لسعته وغزارة مادته كان عاملا على اهمال ما سواه من مختصرات وكراريس ، بل يجب أن نفهم ذلك فيما نقل عن المازني الذى يقول : من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحيي •

فما حاجة الناس الى كتب النحو الصغيرة وكتاب سيبويه مانع جامع لكل قواعده ودقائقه ؟ ألا يمكن أن يكون ظهور هذا الكتاب بين أيدي الناس ـ وهو يجمع جهود مشايخ النحويين من أمثال الخليل ويونس وعيسى وتلميذهم النابه سيبويه ـ عاملا على الغاء ما سواه من كتب واندثارها •

واما حكاية أننا لم نقرأ لواحد من الذين سبقوه قاعدة نحوية واحدة أو مصطلح واحد في القواعد اللغوية أو الاصوات فهو أمر يغفل ما نقله سيبويه عن شيوخه والذين سبقوهم في كتابه • فهو ينقل

أبواباً كاملة في التصغير عن يونس وينقل محاورات كاملة في قضية حكاية الاصوات عن الخليل بن احمد .

كما أن مجالس العلماء للزجاجي تزخر بكثير من الجدل الذى كان يقوم بين متقدمي النحاة مثل عيسى بن عمر وعبدالله بن أبي اسحاق وأبي عمرو بن العلاء ، وجله يدور حول مصطلحات النصب والرفع والخفض والهمز ونحوها .

وقد يكون فيما نقل من أقوال العلماء عن كتاب سيبويه ـ وهم الذين قرأوه فاستوعبوه وفهموا مقاصده وأدركوا أسرار تفوقه ـ ما يعزز دعوانا عن هذا الكتاب ومنزلته في تاريخ النحو العربي .

قال الجاحظ (٢٥٥ هـ) لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله ، وجميع كتب الناس عليه عيال . وقال : أردت الخروج الى محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم ففكرت في شيء أهديه له فلم أجد أشرف من كتاب سيبويه[١١٨] .

وقال المازني : ما أخلو في كل زمن من أعجوبة في كتاب سيبويه، ولهذا سمّاه الناس قرآن النحو[١١٩] .

ونقل عن المبرّد أنه قال : لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه ، وذلك أن الكتب المصنفة في العلوم مضطرة الى غيرها وكتاب سيبويه لا يحتاج مَنْ فهمه الى غيره[١٢٠] .

---

(١١٨) تاريخ بغداد ١٢/١٩٦ ، معجم الادباء ٦/٨٥ ، وفيات الاعيان ٣/٤٦٣

(١١٩) الخزانة ١/١٧٩

(١٢٠) مقدمة الكتاب ٥ والخزانة ١/١٧٩

وقال الازهري صاحب التهذيب : نظرت في كتابه فرأيت فيه علماً جماً ، ويحكى أنه تخرّق في كمّ المازني بضع عشرة مرة[١٢١].

ويقول السيرافي : كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله علماً عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة : قرأ فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سيبويه ، وقرأ نصف الكتاب ولا يشك أنه كتاب سيبويه . وكان محمد بن يزيد المبرّد اذا أراد مريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له : هل ركبت البحر ؟! تعظيماً له واستصعاباً لما فيه[١٢٢].

وقال ابن كثير في ترجمة سيبويه : وقد صنّف في النحو كتاباً لا يلحق شأوه ، وشرحه أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره واستخرجوا من درره ولم يبلغوا الى قعره[١٢٣].

ويقول كرنكو : وقد أودع سيبويه ثمرة دراساته كتاباً كبيراً في النحو العربي ولا يعدّ هذا الكتاب أكبر مؤلف في بابه وصل الينا عن علم البصريين فحسب بل هو قد أصبح أيضاً منذ تأليفه عمدة جميع الدراسات العربية في النحو[١٢٤].

طبعات الكتاب :

طبع كتاب سيبويه لاول مرة في « باريس بتحقيق المستشرق الفرنسي درنبورغ . فظهر جزؤه الاول عام ١٨٨١ في ٤٦٠ صفحة . وظهر جزؤه الثاني عام ١٨٨٩ في ٤٨١ صفحة . وقد اعتمد الناشر

---

(١٢١) تهذيب اللغة ١/١٩
(١٢٢) اخبار النحويين البصريين ٣٩
(١٢٣) البداية والنهاية ١٠/١٧٦
(١٢٤) دائرة المعارف الاسلامية ١٢/٤٠٧

في طبعته هذه على عدة نسخ خطية منها نسخة في باريس منقولة عن أصل مقابل على عدة نسخ لعلماء مشهورين مثل المبرّد وابن السراج والفارسي ونسختين من بطرسبورغ (ليننغراد) ونسخة فينا واخرى من القاهرة والاسكوريال زادت على سبع نسخ .

وطبع أيضاً في كلكتا بالهند سنة ۱۸۸۷ في ۱۱۰٥ صفحات

وطبع أيضاً في مصر بمطبعة بولاق الاميرية بين عامي ۱۸۹۸ - ۱۹۰۰ م (۱۳۱٦ - ۱۳۱۸ هـ) في مجلدين . وطبع على هامشها شرح شواهد الكتاب للأعلم الشنتمري .

وهذه الطبعة هي المشهورة بين الدارسين والباحثين اليوم ، لانها فيما يبدو أدق من سابقتها ، على أنها خالية من الفهارس الفنية والقواعد المتبعة في تحقيق كتب النصوص القديمة من ذكر للنسخ المعتمدة في الطبع واثبات الفروق بين النسخ وتخريج الشواهد ونحو ذلك من الاصول المتبعة في التحقيق .

وقد صورت هذه الطبعة بالطباعة التصويرية في السنوات الاخيرة لحساب مكتبة المثنى ببغداد .

ويقوم الاستاذ عبدالسلام هارون باصدار نشرة جديدة للكتاب على جملة نسخ خطية وبمنهج حديث في التحقيق . وقد صدر من نشرته هذه ثلاثة أجزاء في القاهرة ابتداء من عام ۱۹٦٦ م .

خاتمة :

بعد هذه الجولة السريعة مع سيبويه الانسان والمؤلّف نستطيع القول اننا ـ بقدر ما تيسر لنا من الوقت والجهد والمراجع ـ حاولنا أن

نرسم صورة أو مخططاً عاماً لملامح هذه السيرة الغامضة في كثير من جوانبها الخفية في كثير من وقائعها • وقد كان لنا ما أردنا من تقديم صورة بيّنة الملامح لهذه الشخصية التي شغلت مكاناً بارزاً في تاريخ النحو العربي واللغة العربية وما تزال تشغلها الى اليوم وستظل كذلك ما دامت هذه اللغة قائمة • وحاولنا أن نقول كلمة في المسائل التي ظلت موضع جدل ونقاش في حياة سيبويه وسيرته مثل حكاية لقبه ومناظرته للكوفيين وقدمنا فيها ما رأينا أنه أقرب الى الصواب ، ويتفق مع الروايات التاريخية كما ينبغي أن تفهم •

وتناولنا بالحديث والبحث أيضاً كتابه الذى وضعه وجمع فيه جهوده الى جهود مشايخه الذين سبقوه الى البحث في هذا الميدان الواسع المتشعب فكان كتابه حصيلة ممتازة لهذه الجهود التي استوعبت قواعد النحو والصرف وكثيراً من مباحث اللغة في أصواتها وفي لهجاتها حتى ان الذين خلفوه واعقبوه في هذا المضمار لم يضيفوا الى ما قدّم شيئاً ذا بال •

وكانت لنا وقفة يسيرة في مسألة تسمية الكتاب وترتيب أبوابه وموضوعاته والمصادر التي اعتمد عليها في صياغة مادّته وافكاره حاولنا أن نصحح بعض ما في هذه المسألة من آراء غير دقيقة شاعت عند الباحثين في كتاب سيبويه •

واذا كان لي أن أقول كلمة أخيرة في هذا الصدد فهي ان الحديث عن حياة سيبويه وكتابه لا زالت تفتقر الى الكثير من الجهد الدائب والدراسة المتأنيّة المتأملة للكتاب وهو ما لم أستطع أن أدّعيه لهذا البحث الذي كتب استجابة لدعوة محددة بتاريخ معلوم •

وما يزال الأمـل في هـذا الحلم يراودني وعسى أن أوفق الى ذلك في وقت ليس ببعيد .

ولا بد لي أن أشكر اخواني من الزملاء والطلبة الذين أعانوني على تهيئة مراجع البحث ومظانّه حين وجدت نفسي في ضيق من الوقت وعجلة من الامر .

أهم مراجع البحث ومصادره

١ ـ اخبار النحويين البصريين للسيرافي ـ مكتبة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٥
٢ ـ انباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى ـ ت أبو الفضل ابراهيم ط دار الكتب المصرية ١٩٥٢
٣ ـ الايضاح في علل النحو للزجاجي ـ ت مازن المبارك ـ دار العروبة بالقاهرة ١٩٥٩
٤ ـ البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب ـ د . أحمد مختار عمر ـ بيروت ١٩٧٢
٥ ـ البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير ـ مكتبة المعارف ـ بيروت
٦ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٢٦ هـ
٧ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت
٨ ـ التصريح على التوضيح ـ للشيخ خالد الازهري ـ مطبعة الاستقامة ـ مصر ١٩٥٤
٩ ـ تطور الدرس النحوي ـ د . حسن عون ـ القاهرة ١٩٧٠
١٠ـ خزانة الادب ـ لعبد القادر البغدادي ـ مصورة عن طبعة بولاق
١١ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ د . مهدي المخزومي ـ مطبعة الزهراء ـ بغداد ١٩٦٠
١٢ـ الرماني النحوي ـ د . مازن المبارك ـ دمشق ١٩٦٣
١٣ـ سيبويه حياته وكتابه ـ د . أحمد أحمد بدوي ـ ط٢ ـ مكتبة نهضة مصر ١٩٥٣
١٤ـ سيبويه امام النحاة ـ علي النجدي ناصف ـ مكتبة نهضة مصر ١٩٥٣
١٥ـ طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ـ ت أبو الفضل ابراهيم ـ مكتبة نهضة مصر ١٩٥٣

١٦- الفهرست لابن النديم - ت فلوجل - ط اوربا
١٧- الكامل في التاريخ لابن الاثير - ط بيروت ١٩٦٥
١٨- كتاب سيبويه - ط بولاق
١٩- كتاب سيبويه - ت عبدالسلام هارون - دار القلم القاهرة ١٩٦٦
٢٠- كتاب سيبويه وشروحه - د . خديجة الحديثي - بغداد ١٩٦٧
٢١- كشف الظنون - حاجي خليفة - ط٣ طهران - (أوفست)
٢٢- مجالس العلماء للزجاجي - ت عبدالسلام هارون - الكويت ١٩٦٢
٢٣- مجالس ثعلب - ت عبدالسلام هارون - ط١ دار المعارف - القاهرة ١٩٤٨
٢٤- المدارس النحوية - د . شوقي ضيف - ط١ دار المعارف - القاهرة ١٩٦٨
٢٥- مراتب النحويين لابي الطيب اللغوي - ت ابو الفضل ابراهيم - مكتبة نهضة مصر - القاهرة
٢٦- مرآة الجنان لليافعي - ط مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٩٧٠
٢٧- المعارف لابن قتيبة - ت د . ثروت عكاشة - ط دار الكتب المصرية ١٩٦٠
٢٨- معجم الادباء لياقوت الحموي - ت مرجليوت - القاهرة ١٩٣٠
٢٩- النحو العربي - د . مازن المبارك - دمشق ١٩٦٥
٣٠- نزهة الالباء لابن الانباري - نشر علي يوسف - القاهرة
٣١- وفيات الاعيان لابن خلكان - ت . احسان عباس - دار الثقافة بيروت ١٩٦٨

فهرس الموضوعات

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد

(٨١١) لسنة ١٩٧٤

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م

الثمن ٥٠ فلسًا

١٩٧٤م ـ ١٣٩٤هـ

دار الحرية للطباعة ـ بغداد